

عبدالله النجار

مذهب الدروز والتوحيد



مذهب
الدُّرُوزِ وَالتَّوْحِيدِ

تأليف

عَبْدُ اللَّهِ النَّجَّار

سفير لبنان . مدير معارف جبل الدروز سابقاً

دار المعارف بمصر

١٩٦٥

أبواب الكتاب

الصفحة	الصفحة	الصفحة
٥٦	٧	١ - المقدمة
٦٠	١١	٢ - الملة والأمة
٦٢	١٣	٣ - الملة والتاريخ
٦٥	١٥	٤ - الفرقة والإسلام
٦٩	١٨	٥ - التقيّة
٧٤	٢٢	٦ - تحريف الأقلام
٧٩	٢٤	٧ - شطط المؤرخين
٨١	٢٦	- الأسطورة
٨٣	٢٨	٨ - رموز الباطنية
٨٥	٣٢	٩ - مراتب الباطنية
٨٨	٣٦	١٠ - جهاز الدعوة
٩٠	٣٩	١١ - بين التوحيد والباطنية
٩١	٤٢	١٢ - العقل
٩٤	٤٦	١٣ - مذاهب العقل
٩٤	٤٦	- ذلك العصر
٩٥	٤٧	- إخوان الصفاء
٩٦	٤٩	- المعتزلة
٩٨	٥٠	- الصوفية
١٠٣	٥٢	- الموحّدون
١٠٦		

الصفحة		الصفحة	
١٣٣	٢٥ - رسالة حمزة	١٠٩	- اختفاؤه
١٣٧	٢٦ - الحدود	١١٠	- صلاة
١٣٩	- النفس	١١١	٢٢ - تاريخ التوحيد
١٤٠	- الكلمة	١١٤	- قتل نشكبين
١٤١	- السابق	١١٥	- غيبة حمزة
١٤٢	- التالى	١١٧	- عودته
١٤٦	٢٧ - الفرائض	١١٨	- الختام
١٥١	٢٨ - المرأة	١٢٣	٢٣ - حمزة
١٥٧	٢٩ - الأخلاق	١٢٩	٢٤ - حمزة والمسيح

المقدمة

يخيّل لي أن أول ما يتبادر إلى ذهن القارئ ، وهو يتصفح كِتَابِي ، هو هذا التساؤل :

ما بالُ واضعِهِ يعالج موضوعاً مذهيباً ، في هذا العصر العلماني ، حين أعيدَ الدين إلى قواعده ، تُدارَس مناسكه في معابده ، وتحصر دراساته في معاهده ، إهماداً لجلذوات النعرات ، وإرساءً لحياة المجتمعات . على صعيد الإخاء الإنساني ، والتواصي القوي ؟

لماذا ينكفيئ بنا إلى صفحات ، تُشيع مدينةُ الحاضر عن الاشتغال بها ، بعدما ملأت دنيا الماضي ضجيجاً وصخباً ، وأفعيته ويلاتٍ وحرباً ؟ وما يدعوه للكشف عما بات على الدهر مكنوناً مستوراً ، حين يحمل أن يُطوى من أمثاله ما كان مكشوفاً منشوراً ؟

أما كفافنا في الأرض ما نحن فيه من نزاع على البلغة . وصراع على تقويم الأود ، وتهالك على الحطام ، حتى يُفحِمَنَا في غيبيات ، من عالم الحفاء والنَّجاء . لا طائل تحتها ، ولا جدوى منها ، وكم أقامت من الفواصل والحوائل وأثارت من البلايا والرزايا في أمة . جمع الله فيها أكرم النبوءات . وأغدق عليها أقدس الرسالات . فحوّلتها إلى أسباب للخلاف والشقاق والتنافر والافتراق ؟ على ذلك أجيب : أن العقل الإنساني الذي بسط سلطانه على الآفاق ، واخترق سحيق الأجواء ، وافنض أسرار الأفلاك ، وسبر الأغوار ، وفتق الذرات وسارت مراكبه الفضائية تسبح بين أبعاد النجوم ، يعزّ عليه أن تعصيه أسرار مطوية لديه ، تحت صفحات رفاق بين يديه .

والتحدّى الذي حفز رُؤاد الفياق والقفار ، ودفع خُوض المجهل والبحار . يأبى على الفكر أن يرتدّ خائباً عن باب مُوصد ، أو سرّاً مغلق ، وهو ما عناه

قاهر « إفرِسْت » ، حين سُئِلَ عما حدّاه إلى تسلّق تلك القمة العاصية ،
إذ قال : « لأنها قائمة هناك ! »

فكيف إذا كان ذلك المجهول وراء ستار شفاف ، لا يكلفه عناءً ، وتحت
صحائف مهلهلة لا تكبّده بلاء . إنّ هو أعرض عنه ، تولّاه الوهم بالظنون
من بعيد ، وصوّب إليه سهام الريب والتشكيك ، وعالجه بالحدس والتخمين .
وأثار دونه عواصف الكراهية وريح العداء . والناس أعداءُ ما جهلوا .

لقد دارت الأقلام حول هذا الموضوع ، منذ قرون ، بما يشبه الاكتفاء ،
دون أن ترفع عنه الغطاء ، أو توليه ما يستحقّ من تمحيص واستقراء ، كما
يُستشيرُ المستطلعُ نُظَرَه إلى ما وراء النقاب ، يزيّن له وهمّه ما يشاء . وكم أخفى
النقاب من محاسن أو بشاعات ، وأبدى السفور من وضوح الملامح وبيّن القصص .
كل هذا وأصحاب المذهب يتأبّون الكشف عنه حفاظاً واستتاراً ،
لا تتأبّهوا واستكباراً ، فقد أغلق في يقينهم الباب . . وطوى الكتاب . . فأى
شأن للناس بما بينهم وبين الله ؟ ! وما همّهم ما يشاع حولهم ويذاع من تهمة
وافتراءات ؟ ! حتى إنهم يكتُمون أسرارهم عن السواد الأعظم من ملتهم .
لا يطلعون عليها إلاّ كل مختار أمين ، مشهود له بصحة اليقين ، في مراحل
تثبت وامتحان ، أشبه ما تكون بأساليب الدخول في الماسونية ، والتدرّج في
مراتبها . بما فيها من علامات وشيآت ، ورموز وإشارات .

ولكن الناس — كما يقول العلامة محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي —
« ما زالوا مختلفين منذ القديم في حقيقة الموحّدين أبناء هذا المذهب . وكان بعض
المتعصبة . ممن يرون الكذب على المخالف من السياسة والكياسة ، يتقولون
عليهم . ويخطّون من مكانهم ظلماً وافتئاتاً . . وما أضرّ السياسة إذا
كانت تُبعد بين أجزاء الأمة الواحدة » .

أو كما يقول الشاعر العالم رئيس المجمع بعده : خليل مردم بك ، وهو من
أعلام الإسلام : « ون الناس من جاوز مهيج البحث إلى ترّهات التلفيق ،
فقع بتدوين الأفاصيص والتكاذيب مما تلوّكه ألسنة العجائز والصبيان ومن في

طبقتهم ، شأن بعض أصحابنا المستشرقين في كثير مما يكتبون عن الشرق :
ومنهم من لجأ إلى الفيرية فاختلق وافتري ما شاء . كل ذلك وبنو معروف
معنصون بالصمت ، كأنهم يتأثَّمون من الإفصاح بشيء عن كنه مذهبهم ،
إلى أن أخرج أحد كبار فضلائهم هذا الكتاب (يعني به كتابي « بنو معروف ») .
وكان المؤتَمِّرون على هذه الفلسفة الباطنية ، وحفَظَتُها ، مستغرقين
في هناءة دُفُئِها ، يتنغمسون بتلاوة رسائلها ، ويُسَيِّغون تكرارها واجترارها .
ومعظمهم لا يكلِّفون أنفسهم عناء فهمها ، واستجلاء غوامضها ، وفك رموزها ،
وحل طلاسمها . أمّا القلة التي ألمَّت بِسِرِّ الدعوة ، وأحاطت بكنه الرسالة ، فقد
أبت عليها منزلتها الروحية أن تفضي بما تعلم إلى غير المؤهِّلين المستكتمين . وحجَّتْها
في ذلك أن باب الاستجابة للدعوة أغلق منذ قرابة ألف عام . فأية فائدة روحية
ترجى من فتحه ، وهي لأشأنها بالمستطلعين ؟ ولم تبال - وربما لم تعلم - بالمفترين .
ونظرت الكثيرة إلى هذه القلَّة نظرة تهيُّب واحترام . خشية إزعاجها في
مكتكفِها ، أو تحامياً لنقمتها ، وتحاشياً عن غضبتها ، فلم تُفحِّم النخبة
المفكِّرة نفسها في ما هو من شأن سِدَّةِة الإيمان ، وإن فرطوا فيه ، ولم ينبروا
للدفاع عنه . حتى قرع العلم باب الإيمان ، لإنصافه بالنظرة الموضوعية ،
ونفض ما تكاثف عليه من غبار ، وفحص ما تضاربت حوله الآراء والأفكار ،
فلم يبق ما يبرر سِتْرَه في زمن تنصرف فيه العقول إلى ما هو أجدى من غيبات
لا طائل تحتها بعد عصور من الاختلاف على المجهول .

ومن أولى من أصحاب البيت بتلبية نداء العلم ، وفتح الباب على مصراعيه ،
ولو كره المطمئنون خلف جدرانهم . ففي ذلك تحقيق لرغبة المستطلعين . ومعظمهم
من أبناء هذا المذهب نفسه . فقد سألتى العدد العديد منهم عما انطوى عليه ،
وما نُسب إليه . وما الفائدة من الانتهاء إلى ملَّة دون الاعتزاز بها ، كمن يحمل
اسماً لا معنى له ؟

ما أكَثَرَ ما جرَّ الكتمان على أصحابه من اجترأ وافتراء ، وتمويه وتشويه .
وهو الجزء العدل لمن ترك لسواه الكشف عما انطوى عليه ، ولم يَسْتَبِر لتصحيح

ما اتهم به وسدّد إليه، في فوضى اختلاط الغث بالسمين ، والأنيض بالغريض ، واستسلام الأخذ للعطاء ، دون تمحيص أو استقراء .

لهذا أخذت على عاتقي جلاء ما يبدو من مفارقة بين قومٍ ما برحوا يخوضون عباب التاريخ بأروع مفاخر الإباء ، وسيّر الفداء ، وبين ما يكتبه عن عقائدهم ، من وصف ما كر . وتزوير سافر ، كتّاب أضمرُوا العداء . أو ما ينقله مؤلفون من تواتر الظنون .

لعل بهذه المحاولة أضمت إلى المكتبة العربية ما لا غنى لها عنه في تكامها ، غير زاعمٍ أني أغنيها عمن هم أكثر مي كفاءة لسدّ فراغٍ فيها طالما شكت منه . فإنّي سأبسط ما اطلعت عليه ، ودققت فيه كل التدقيق ، من قواعد المذهب وفلسفته . وأنا غير مستكنّ لها ، ولا مؤتمنٍ عليها . فأكون ، بما أفعل ، أصدق في حقّها ، وآمن لدامها ، من أولئك الملتحفين بها المتزمتين بكتّانها . الحابسين لها عن النور ، إن لم أقبل واثديها .

من يدري ؟ فقد تقوم على قيامتهم ، وتُصَبُّ نفعتهم ، حين أبسط أمام الناس فلسفة هذا المذهب ، وأعلن أسرارهِ ، بنفس راضية ، وقلب منطّنين . لكنّ لي بينهم : بلّ في مقدّمتهم : سدة عارفين يؤيدوني ، وهم يعلمون أني أودّي أجلّ خدمة لأبناء المذهب ، وغير أبنائه . على السواء ، لم يُقدِّم عليها أحد قبلي ، آليت على نفسي تأديتها بتجرّد تام ، بعد كثير من المشقة والتحقيق المرهق . فقد استعنت بما وصلت إليه يدي من الكتب والرسائل وشروحها ، وبما أفضى إلى به فضلاءُ الأشياخ الثقات ، وبما جاء في كتب المحقّقين من الغربيين . مستشهداً بالنصوص من مصادرها الأصلية ، بأمانة كلبية ، لم أسبّغ إليها . أقول هذا دون ادّعاء أو اعتداد ، وأنا مع ذلك معترف بعجزى عن الإحاطة التامة . أسأل الله الرشاد والسداد ، وأردّد مع الشاعر :

إن المقادير إذا أسعفت
ألحقت العاجز بالقادر

المِلَّة والأُمَّة

درس نَحْلَة من النَّحْل . أو مِلَّة من المِلل . يختلف جدّ الاختلاف عن درس أُمَّة أو قوم . فلكلا الدرسين أبوابه ومناهجه . وأسبابه ونتائجه . اللهم إلاّ في اجتماعهما معاً ، وفي ما ينجم عن ذلك الاجتماع من تفاعل . وتجاوب بينهما ، واشتراك في تكيف حياة المجتمع ومظاهره .

نقصد بالمِلَّة طائفةً من الناس . تذهب مذهباً خاصّاً في عقائدها الدينية . وبالأُمَّة شعباً ذا تاريخ خاص لحياته القومية . ونعتذر بالحاجة في الاصطلاح إلى أساتذتنا المتوسّعين ، ونعوذ بهم من الغلاة المتشدّدين .

وليس من تماسٍّ بين الدرسين ، إلا عندما تتألّف الأُمَّة من مِلّة ، أو مِلَل ، وهى لا بدّ متألّفة ، أو حين ينتشر فيها . أو في بعضها : مذهب ديني ، فيكون له إذ ذاك أثر في مدنيّتها ، ويكون للأُمَّة كذلك ، من حيث حضارتها ومستواها الفكري ، أثر في الدين وممارسة مناسباته .

فإن للأخلاق القومية أثراً بيّناً في عقائد الأقوام ، كما أن للعقائد نفسها يداً في تطوير تلك الأخلاق وتهذيبها . ومظاهرها مجتمعيّين ، غيرها مفرّقيّين . كما أن مظاهر ذلك الاجتماع تختلف باختلاف البلدان ، وتكوّنها العنصرى الأصيل . وكم أخفق المبشرون في هدّى الأقوام الجاهلة إلى فهم صراطهم في الدين . كما يقول الفيلسوف الإنكليزي « هنرى بيكّيل » . ذلك لأنهم إنما بلغوه بمرتبة عقلية وخلقية غير مرتبتها ، ومستوى غير مستواها .

والأُمم في رقيّها تتبدّل مناهج عقيدتها ، وتتطور أشكال مناسكها وتعبّداتها ، وقد تُسفر مناحى اتجاهاتها عن تعدّد الفرق الدينية ، كما حدث في الإسلام والنصرانية ، أو عن استبدال بدياناتها الأصليّة ، وإقبال على ديانة هى أكثر ملاءمة لها في حالها تلك .

وكثيراً ما كان الاضطراب الاجتماعى ، والخلل القومى . من البواعث على

إيجاد شريعة تكون صلةً أو وسطاً بين شريعتين متباينتين من أصل واحد .
وأحسبى موافقاً . في هذا الرأي . القائلين بخلق الحاجة جديداً . وما دام
العالم في جدّد النشوء . فالحاجة وليدة نموّه ، وأمّ اختراعه . ولا أستثنى من
بَنَاتِهَا العقائد ، لأنها تولّد .

تغنيى بساطة هذه الحقائق عن التماس الشواهد . حسبك منها فِعْلُ
الإسلام في حضارة العرب . فهو . بما بثّ من روح الجماعة ، وشحذ من
شَبَوَاتِ البلاغة ، وأطلع من أنوار الهدى ، قد امتّهدَ عند العرب يداً في
تمدُّنٍ غلبَ المؤرّخون عليه النسبة الدينية . فقالوا « التمدّن الإسلامي »
بدلاً من « العربي » . وجمع هذا الاسم تحت لوائهِ أقواماً مختلفة ، فكان فِدّاً
الأديان في ذلك . نذكره لبيان ما للدين من أثر ، اشتدّ أو ضوّل ، امتدّ
أو ضمّر .

لم يُطلق على تمدُّن قومٍ غير العرب اسمُ الدين . وكان ذلك لأسباب . منها
أن الدين كان العامل الأكبر على استعجال ظهور ذلك التمدُّن . أو على
إظهاره بذلك الشكل العجيب . ومنها أنه اشتركت في نسج برديهِ أممٌ إسلامية
لم يكن لها من القومية العربية نصيب غير اللغة . بها استعربت ، وبالإسلام
تحضّرت . وبكليهما أسهمت أيما إسهام .

وكما أن التاريخ لم يحدثنا عن تمدّن بوذي ، أو برهمي ، أو نصراني ، وإن
هو ورد فيه إسم « الإمبراطورية الرومانية المقدّسة » — التي لم تكن رومانية ولا
مقدّسة — فهو لم يحدث عن دين كالإسلام ، انتشر بمثل سرعة الإسلام ،
وأُسفر مثله عن تمدّن متأثر به ، مَشِيد على مثل هذا العدد من المِلَلِ
والعناصر .

على أن التاريخ في درسه المِلل ، غيرُهُ في درسه الأمم . ونحن فيما قدّمنا
من التمهيد نبغى الفصلَ بينهما ، لحصر البَحْثِ ، لا للقول بانقطاع الصلة
وتراخي الأسباب .

الملة والتاريخ

يندر أن تصبح النحلة قوميةً ، وإن كان للقومية نحلة واحدة ، قد تنتشر فتشمل قوميات متعدّدة ، أو تنشق منها ، فتكون نتيجة من صوب ؛ وعلّة من صوب آخر . وكلّ ما تولّده حضارة قوم يشترك في إقامة تلك الحضارة ، فإن لم يكن له خاصّة النموّ في المواد ، فهو موجود . والوجود عمل قائم بذاته . يتناول التاريخ أمةً ، فيبحث في جنسها ، ونشوتها ، وعصورها ، ودولها ، وحادثاتها ، واقتصادها ، وعلومها . وهي أبحاث كان المؤرّخ القديم يدوّنها نقلا عن الرواة ، وبناء على ما يتصل به من الأخبار والمشاهدات . أما المؤرّخ الحديث فيعول على مصادر أخرى استقرائية واستنتاجية في إثبات ذلك النقل أو نفيه عدينا . إذ أي قيمة لما يروى ، مثلا ، عن رجل ليس في أخلاقه ، أو الأحوال التي كانت محيطة به ، ما يؤيّد تلك الرواية . فلا يقال مع الناقلين إن أبا العلاء المعريّ جاحد ، بل يُشار إلى العلل التي هدّبت عقيدته ، وجعلتها نسيجاً وحدها ، وجعلته فذّاً زمانه ، وعصائى عصره . فهو في الحكم الصحيح ليس ذلك الكافر الحارب من وجه الله ، بل حجة العبقريّة المنتصبة في وجه الشمس ، الناطرة بعين العقل إلى أغوار الحقّ .

ويتناول التاريخ ملةً ، فيبحث في نخلتها ، ومصادرها الفلسفية . والتطورات الفكرية ، والأحوال الاجتماعية والسياسية ، وطائفة من العلل التي أفضت بها ، وتضافرت على إبرازها وإخراجها إلى الوجود ، من مكامن النفوس والعقول . وكم حلّت بها نكبة النقل ، وتعاورتها أهواء الرواة ، فجار عليها مؤرّخون ، أو أطنب فيها مؤرّخون ، وضاع بينهم المنصفون ، حتى انبرى التاريخ العلمى يوسعها بحثاً واستقراءً ، ويمعن فيها درساً وتنقيباً .

وهو ، على ذلك ، لا يسزّه عن الخلل ، ولا يُعصّم من الزلل ، فإن يد المرء التي تدوّنه ، يحرّكها عصب من الدماغ ، ولكنها قريبة إلى القلب ،

متأثرة بمزاج الكاتب وعاطفته ، وإليهما يُعزَى الاختلاف والتباين فيما لا يُجمع عليه المدوّنون . وكم أُعيدَ النظرُ في سيرة مدمومة لعظماء غابرين ، من أهل الدنيا والدين ، لتصحيحها ، وتبييض صحائفها ، بوحى وطنى أو ديبى ، مراعاةً لعواطف دينية ، أو تحقيقاً لمصلحة قومية . والتاريخ علمٌ من حيث التدقيق ، وأدبٌ من حيث التطبيق . فإذا كان العلم مجرداً ، فالأدب غير ذلك . إنه فنّ التبيين والتزيين . وأسوأ ما فيه الاجتزاء . والاجتزاء أسلوب منطقى سقيم قديم ، أريدَ به التضييل . يستعين صاحبه بما يلائمه من المسطورات والرويات . مستشهداً بها لتأييد وجهٍ من وجوه الجدل . لا يهتم في ذلك التحقيق ، ولا تعنيه الإصابة والخضوع لقوانين البحث وأصوله . وإنما غرضه الفوز في المناظرة ، ولو بالإيهام والمكابرة . إنه ضرب من ضروب علم الكلام في فوضاه . من آثاره تعدّد الفرق والمذاهب ، لقوله تعالى « لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً » (سورة المائدة الآية ٥١) .

ولا ننسَ عامل السياسة الأوّل . الذى كان له الشأن الأكبر في خلق المذاهب وتشعبها . والتفريق بين الطوائف وتباعدها .

نشير إلى هذا العبث بالتاريخ ، والإغارة على مواكب أسفاره ، ونحن في صدد الكتابة عن مذهب باطنى . من وعورة المسالك إلى مجاهله وخفائيه يُلْتَمَسُ العذر لتيه العابثين ، وخيبة المغيرين .

وسنحصر بحثنا في تاريخه العقائدى . فإنه لا يتعدّد وكونه . ملّة متفرعة من الدوحة الإسلامية . قوميتها عربية . لم يصبها من الاختلاط إلا ما أصاب العرب قبل نشوء مذهبها . ولم يبق هذا المذهب إلا بين العرب في ديار الشام . أما بعد انكفائه وانطوائه على ذاته منذ ألف سنة ، فلم يصبه أى اختلاط . فأبناءؤه من أصنى العرب عنصراً وأصحهم أرومة . لذلك لا يصحّ درسهم باعتبارهم أمة . وإن كان الانتداب الفرنسى بعد الحرب العالمية الأولى قد حاول اعتبارهم أمةً . بإقامة دويلة لهم في « جبل الدروز » ، فما كاد كابوس الانتداب يزاح ، حتى سمّوا بلادهم تلك : « جبل العرب » . وعادت المياه إلى مستواها . . .

الفرقة والإسلام

طلع القرن الرابع للهجرة (العاشرم) على الدولة العباسية ، فإذا هي في دور احتضار طويل . سنين . فيما بعد . ما أسفر عنه من تعدد الفرق والدول ، واشتداد المنافسة بينها . حتى طمع فيها الروم ، وكادوا أن يستولوا عليها ، لولا أن وقف في وجههم الحمدانيون مثلما وقف الأيوبيون في القرن السادس للهجرة في وجه الصليبيين .

وفيه عزّ جانب الفاطميين . واتسعت رقعة حكمهم . حتى شملت الشام والجزيرة وخطب لهم على المنابر ، وبلغ العلم ذروته . بالرغم من انشغال الدول العربية وتنازها . وانقسام الأمة إلى شيع ومذاهب . فقد كان ذلك العصر عصر العلم والفلسفة .

ترافق النهضة العلمية نهوض الدولة . ولكنها لا تضمحلّ باضمحلال تلك الدولة . بل تستمرّ بعدها . إلى أن يصل إليها تأثير انقطاع أسبابها . هكذا كان شأن العلم في ذلك العصر . فكما أنه لم يزدهر في عهد أبي جعفر المنصور . أو المهدي ، أو الهادي ، بل في عهد الرشيد والمأمون . كذلك لم تذو أزهاره . وتخبّ أنواره . في عهد الانقسام . على أثر تفكك الدولة العباسية . بل بعد الانقسام بزمان طويل . فقد أثبت التاريخ أن العلم لم يكن أقلّ شأنًا في عهد الانقسام منه في عزّ العباسيين . ونظرة إلى من التفّ حول ملوك ذلك العهد من العلماء . وما كانوا يتمتعون به من إجلال وحداية وتقريب ، وعلو كلمة . ومنح وصلا . على رغم التأخر الاقتصادي — نظرة إلى كل ذلك تكني للدلالة على علو كعب العلم وعزة جانبه .

إذن . فالعصر الذي نحن بصده كان عصر العلم والفلسفة . وقد بلغا أوجهما في ظل الفاطميين . ولمّا كان لا بدّ للدين من أن تصل إليه يد العلم . لاتّصاله بالفلسفة . كان السبب في تعدّد الفِرَق الدينية تقدّم العلوم .

ولا سيّما علم الكلام: أضف إليهما عامل السياسة . فمن الثابت أن السياسة وراء كل انقسام ديني . وقد هيأت الناس لهذا الانقسام حياتهم الاجتماعية ، وما وصلوا إليه من بلذخ وترف واختلاط بالأُمم الغريبة .

لا يسعنا تعداد تلك الفرق التي حفل بها ذلك العصر . تكفي الإشارة إلى أسواق المناظرة والجدل ، وما أثير فيها من نظريات وآراء ، وما تفاقم حولها من قتال وعداء ، كما فعل القرامطة والإسماعيلية والخوارج الأباضية . وكانت جميع الفرق تعود في مناظراتها الفقهية والفلسفية إلى كتابها الكريم . القرآن . ومن هذه الفرق الموحّدون أو الدروز .

من غيرة ذلك العصر شبّت في مصر تلك الفئة من الحكماء . متأثرة بروحه الفلسفية : متتعةٌ بحماية الخليفة في انشاقها من الشيعة الباطنية . وقد كان الخلفاء يستعينون بالمذاهب وأصحابها لبسط سلطانهم على الأقطار : وتوسيع رقعة حكمهم في الأمصار .

ولكن يخطئ من يعزو إلى الخليفة الفاطمي ابتداع هذا المذهب ، وإن هو استفاد من استخدامه . فإنه امتداد لموجة ذلك القرن الفكرية ، ووليد الفلسفة التي بلغت النضوج عند العرب . إنه نتيجة لا بدعة . من يدرسه على حدة يقع في بُحْرانٍ فكري . كيف لا ؛ وهو وليد الباطنية . والباطنية وليدة الصوفية الشيعية . والشيعية وليدة الإسلام . وكانت المذاهب تبنى على القرآن مناظراتها ومجادلاتها . المستمدة من الفلسفة ، المرتكزة على علم الكلام . حسبنا الإشارة إلى الرسائل المتبادلة بين أبي العلاء المعري وداعي الدعاة .

من الثابت : إذن ، أن هذا المذهب متفرّع من الإسلام . والإسلام من حيث انحصاره في القرآن : وعدم خروجه عنه . هو مدار هذا المذهب الذي يفسر آياته على طريقته الخاصة . فهو ليس ديانةً ، وكتبه تسمّى « الحكمة » ، مما يدل على مصدرها الفلسفي . الخافل بالنقد والتفسير والتحليل والدحض والإنبات والتأويل .

إننا إذا سمينا ديناً كل شكل من أشكال العبادة ، وكل نوع من أنواع

فهمها وتفسيرها ، وكل لون من ألوان ممارستها ، كانت الأديان من الكثرة بحيث يصعب إحصاؤها ، بل بحيث تولد مع كلّ حيّ ، وتموت معه . ثم ماذا الإسلام عندئذٍ غير السنّة ؟ وماذا النصرانية غير الكشلكة ؟

إن « التوحيد » صلب الإسلام ، وهو أيضاً صلب جديع فِرَقِهِ ، ولا سيما الدروز الذين يسمّون أنفسهم « الموحدين » . أمّا الانتقال من دين إلى آخر ، فهو انتقال من اعتقاد إلى آخر ، في جوهر المعبود ، كالانتقال عن عبادة الأصنام ، إلى عبادة آلهة عديدة ، إلى إله مركّب ، إلى إله واحد ، وهو التوحيد .

هنالك حجة أبين ، هي أنّ تأويل الفروض الإسلامية ، وتفسيرها ، لا نقضها ودحضها ، اعتراف مبدئيّ بها . وليس « كمال » الناموس الذي جاء نقضاً جوهرياً له ، كما نرى في تعاليم الإنجيل . وإن كان الدروز يعنون فريق الهدى منهم ، إذ يردّون الحديث النبوي : « ... تفرّق أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة » . على ما في التريد من اجتزاء . . . ولندخل في صلب هذا المذهب :

التقية

كان «الموحدون» - الدروز - منذ نشأة مذهبهم ، في مطلع القرن الخامس للهجرة - الحادى عشر للميلاد - محترسين في كتمانهم ، مشيحين عن إعلانهم ، صيانة لأنفسهم من الاضطهاد ، ووقاية لها من العدوان ، في ذلك الزمان .

هذه الفرقة المتفرعة من الشيعة ، كانت عرضةً لنقمة الشيعة والسنة على السواء . كما كانت الشيعة نفسها ، قبل قيام أمرها ، واشتداد أزرها ، هدفًا لمجاهدة السنة لها ، وعدوانها عليها .

فمما يروى ، أن معاوية بن أبي سفيان أباح التنكيل بالذين كانوا يدينون بالولاء لعل وأهل بيته . وحذا حذوه في اضطهاد الشيعة بعض عمال الأمويين . لا سيما في ولاية عبيد الله بن زياد قاتل الحسين بن عليّ ، وفي ولاية الحجاج ابن يوسف . فكان التزام التقية أوجب وجوه الحذر ، والحيلة من التقتيل والتشريد .

في هذه التقية يتدرع المتقون بالآية القائلة : « . . . إلا من أكرهه وقلبه مطمئن بالإيمان » (سورة النحل : الآية ١٠٦) . قيل إنها أنزلت بعد العذاب الذى وقع على عمار بن ياسر وإكراه المشركين له على قول السوء بحق الرسول ، وإن الرسول قال له ، حين جاء مستغفرًا : « لا تبك . إن عادوا لك فعد لهم بما قلت » . فكانه بذلك يزيد لمن قيل لهم « . . . واحفظونى فى قلوبكم » . . . جاء هذا الكتمان بعد إغلاق باب الدعوة سنة ٤٣٤ هجرية ، مما سنّفصله فيما بعد .

فكان الدعوة يوصون أتباعهم بالحذر والكتمان ، حفظًا لسلامتهم من الاضطهاد الذى نزل بهم سنين متواصلة ، بعد غيبة الحاكم ووزيره حمزة ، حتى قضى على المذهب في مصر ، موطن ظهوره الأول ، وحفلت الرسائل

بتحذير المستجيبين منها ، على سبيل المثال ، المنشور الذي أرسل إلى آل عبد الله وآل سليمان سنة ٤٣١ هـ ، فقد جاء فيه : « واستديموا بالسَّتر لما أوعزناه إليكم . . . ولتدبّر بالسَّتر لإثبات أسماء المعاملين . . . وليُنفذوا في ستر وخِفيّة إلى شيوخ آل عبد الله نسخة هذا الكتاب . . . وإلى شيوخ البستان وإن تعذّر عليهم من ينهض بذلك . . . »

وكانوا ينصحون لهم بالارتحال إلى حيث يكون لهم وليٌّ يلطف بهم ، وينصفهم ، ولا يَحيفُ عليهم ، « فإن كان الموضع الذي أنت فيه يصلح للسرّة ، فالمقام . وإن أردت الانفساح وراحة القلب ، فعليك ببلاد الشام . . (الرسالة ٨٩) ، حيث اعتصمت عشائهم في صياصي جبالها ، بعد أفول نجم الأمويين والعباسيين ، وتراخى حكم الفاطميين الذين أهعنوا في مطاردة « الموحّدين » بعد اختفاء الحاكم بأمر الله الفاطميّ الذي رعى مذهبهم .

وسُمّح لهم ، بالحيلة والإنكار ، « عند الإضرار ، والله العالم بما تُظهِرون وما تكتُمون » ، كما سمح الرسول لعمّار ، وفِقاً للآية الكريمة : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكرهه . . . » أي أن المَكْرَهَ معذورٌ لسأنه ما دام قلبه مؤمناً ، فقد تستطيع إكراه امرئ على قول ، ولكنك لاتستطيع إكراهه على فكْرٍ ، أو إيمان ، أو عقيدة في القلب .

ولكنهم من فرط ما قاسوا من ألوان الاضطهاد والتعذيب والتقتيل والتنكيل ، رحل أكثرهم عن مصر إلى ديار الشام . وأفضى الخوف بكثيرين إلى الإنكار والتظاهر بالبحود ، بما يشبه إنكار بطرس الرسول للمسيح . وانحاز بعضهم إلى صفوف أعدائهم . في ذلك تقول « الرسالة ٧٤ » : « فأين تسميتهم لأنفسهم بالموحدين المهاجرين ؟ ! وأين قولهم إنهم أخرجوا من ديارهم بعد القتل والزعج هارين ؟ ! » . حتى إن بهاء الدين ، كبير دعايتهم بعد الغيبة ، يقول : « وأنا متغرب ، بعد الهجرة ، بالاضطرار . . . عجلّ الله جزاء أهل الردّة . . . ولا تاب على الذين أحوجونا إلى التغرّب . . . »

وتصف « الرسالة ٧٤ » المؤرخة في ٤٣٠ هـ ، ذلك الاضطهاد بهذه العبارات :

« ... آل السفه الذين رفعوا رؤوس الشهداء على رؤوس الرياح ، وسقوهم كأس الذباح ، مع من أغرقوا في البحار ، وأحرقوا بلهب النار ، وقتلوا الجسم الغفير ، بعد سبى النساء والأولاد ، وقطع قلوبهم والأكباد ، وتعليق رؤوس الرجال الموحدين في أعناق أخواتهم وبناتهم ، وذبح الأطفال الرضّع في حجور أمهاتهم ، فلم يرعوا لأحد في الله إلاّ ولا ذمة . . . بل أجروهم على حدّ السيوف قتلاً وصلباً ، وفي الشوارع شقاً لبطونهم ، وجرّاً بأرجلهم وسحباً ، ولأموالهم وذرايهم سبياً ونهباً . ولم يُجروهم بأخذ الجزية منهم مجرى النصرارى واليهود . بل ذبحوهم كما تُذبح الجُرُ عداوةً لله . . . فإلى البارئ تعالى وإلى وليه المستغاث والمشتكى ، وإلى رحمته المفزع والمُلجأ . . . بهذا نطقت صحف الحكمة والأسفار عن اجتماع فرق الشكّ على قتل الفرقة الواحدة الناجية . . . »

تشير بذلك إلى « الرسالة ٧٨ » القائلة : « في ذلك اليوم يصبح الموحّدون هدفاً للاضطهاد ، ويكون القابض على دينه كالقابض على الجمر ، ويفرّ المؤمن بدينه من شاطئ إلى شاطئ » .

إنّ التاريخ حافل بأنباء الاضطهاد الديني ، لم ينبج منه أتباع أى دين من الأديان . على أنه لا يصحّ أن نُلقي التبعة في ذلك على الأديان التي يرتكب تابعوها ، في جهلهم ، ما تنهى عنه : ولا سيما الدين الإسلامى القائل « لا إكراه في الدين » ، و« قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ » ، و« ولو شاءَ الله ما أشركوا . وما جعلناك عليهم حفيظاً ، وما أنت عليهم بوكيل » (سورة الأنعام الآية ١٠٧)

ولكن للحماسة العقائدية فورات تُخْرِج متعصبة الأقوام من حدود الوصايا الدينية . ومع ذلك ، إذا استثنينا مكافحة الدعوة « التوحيدية » في إبانها بالشدّة التي ذكرنا . فإننا نجد أن الدروز وسائر الملل الصغيرة المنتسبة إلى الإسلام . المخالفة لبعض أصوله وفرائضه . اجتهداً وتأويلاً ، كفرها بسببهما فقهاء السنّة : ما برحت منذ ألف سنة تحت سلطان المسلمين أمانةً مطمئنة ،

عزيزة الجانب ، موفورة الكرامة ، على قلّة عددها ، مما يدلّ على سماح الإسلام حتى في أَوْج سطوته وأيده ، حين كان باستطاعته إذابتهم واستيعابهم ، كما محت النصرانية الإسلام في إسبانيا . أو كما ذبح كاثوليك فرنسا في عيد « القديس » برتلماوس خمسين ألف مواطن بروتستانتى ، ونالوا تهاني جميع الدول الكاثوليكية ، حتى إنّ البابا غريغورى الثالث عشر أمر بإشعال الزينات وإعداد الأوسمة لهذه المناسبة .

لقد مضى ذلك الزمن وانقضى ، وأصبح شعار الإنسان الحاضر : « لكم دينكم ولى دين » ، وصار واقع الناس : « إنّنا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مُهتدون »

وبقيت التميّة ، اصطلاحاً ، لا استحياءً . وخفّراً ، لا وقاءً .
وآن لها أن تُشرّع باب خلدوها للنور ، وأن تستبدل بالنقاب السفور .

تحريف الأعلام

لن أنصدّي لنقد ما كُتِبَ عن المذهب . ولكن لا بدّ لي من التنبيه إلى ما أدخل على رسائل « الحكمة » من حشو ، وما وقع من تحريف في نشر الدعوة ، وما أقحِم للكيد والتشويه . فإن « الدرّزي » ، وهو الداعي الأوّل ، بعد ارتداده ، وبسبب حقه على حمزة ، أقدم على تزيف الرسائل ، وإدخال البِدْع ، مما أثار عليه الخليفة الفاطمي ، حتى أمر بقتله . واشترك مع نشكين أعوانه من الدعاة الذين تأمروا معه على إفساد الدعوة وهم « سَكِين » ، و « لاحق » ، و « مَحَلّا » ، و « سهّل » ، « وابن أبي حصية » ، و « ابن معلّ » ، وغيرهم كالبرذعي والحبّال .

فوجّه حمزة وبهاء الدين كتباً إلى الأقاليم ، وعلى الخصوص ديار الشام ، يحذّران بها المستجيبين من تحريف التعاليم وكتبها ، ويوعزان بعرض تلك الكتب والرسائل على الدعاة الثقات للنظر في صحتها وتصحيح ما أدخل عليها . رسائل التحذير هذه من كتب « الحكمة » نفسها ، أوردُ من نصوصها ما يلي : في الرسالة ٦٥ يُنَوّه المَقْسَمَتَي بهاء الدين بارتداد « سكين » الذي كان قد قُلِّد أمر الدعوة على جزيرة الشام العليا سنة ٥٤١٨ هـ ، وبخروجه عن الطاعة واستقلاله بالسلطة على المستجيبين ؛ وجعل نفسه من « الحدود العالية » بانتحاله منزلة « الرضى » صاحب السفارة ، أي « الكلمة » ، ويقول :

« ولما فحصت أفعال سكين وجدتها مدخولة بتغييره لرسائل الحكمة . . .

بالزيادة والنقصان . كما فعل برسائل قائم الزمان (أي حمزة) . إلى أن بدّل الميثاق . وابتدع مبتدعات . . . واشتهر بتحريفه . . . فاعرضوا جميع ما قيملكم من الرسائل على الشيخ الثقة الأمين » . . . ثم يخاطب ذلك الشيخ بقوله : « أيها

الشيخ الثقة اكتشف عن حقيقة هذا الخلل . . .

وفي الرسالة ٧٧ تنديد بالتحريف وابتداع الباطل ، وزخرفة الآيات المكذوبة .
وفي المنشور ١١١ يحذّر بهاء الدين من البدع والتحريف ، ويقول « فأنا
بريء » مما اختصره . . . ونسبّه إلى الدين والإيمان . والبارى يشهد بما أذعته من
النهي عما أحدثه « لاحق » و « سكين » و « مصعب » وأمثالهم من المحرّمات .
ويودّع المؤمنين منبهاً إلى ما حرّفه وأدخله هؤلاء المارقون على نصوص الرسائل .
هذه الرسائل التي لم توجد نسسخها إلا في بلاد الشام ، لا في مصر ، مركز الدعوة .
وفي الرسالة ٥٧ تحذير ممن « تخرّص الباطل . . . واخترع . . . وشطن
وحرّف وأزال الكلام عن مواضع الحق بضده » . ولم يكن من وسيلة للتصحيح
إلا بمثل هذا التحذير .

وفي الرسالة ٣٨ : « . . . فنهاهم عن التغيير احتساباً لدعوى سكين » .
وفي الرسالة ٧٩ توبيخ للمحرّفين الذين زيّفوا وشوّها بعض الرسائل :
« فهذه العصابة اختلقت في الدين ما ليس فيه » . . .
وفي الرسالة ٧٦ أوضح بيان في « توبيخ ابن البربرية » . . . « هذا
المحرّف لكتب ولي الحق . . . هذا المعتوه . . . هل أكذب وأخيب ممن
بدّل بالكذب والبهتان الدين الصحيح » .

للتقريب إلى الأذهان ، ونخصّ مواطنينا في لبنان ، نستشهد بالتحريف
الخطير الذي أدخل على تعاليم القديس يوحنا مارون ، أوّل بطاركة الطائفة
المارونية ، وناشر عقيدتها ، فإنّ توما الكفّرطاني مترجم كتابه « إيضاح الإيمان »
الذي أنفذه إلى أتباعه ، حرّف من أقواله ما ندّد به المطران يوسف الدبس
[في المجلد الخامس ، الجزء الثالث ، من تاريخ سورية ، صفحة ١٥٦ و ١٥٧]
غاضباً بتموله عن المترجم : « إنه تلاعب بهذا الكتاب ، فأسقط عبارات . . .
وعبث وعاث — . . . بأن عزا إلى القديس القول بالمشيئة الواحدة » .

فن لنا بمن يبيّن مواطن ما أشير إليه من تحريف حذّرت منه الرسائل
التي ذكرناها .

شطط المؤرخين

تعاورت أقلام المؤرخين الذين كتبوا عن هذه الملة ومذهبها عواملٌ متعدّدة ، فمنهم من كتب تشفيّاً من غل ، ومنهم من رمى ، على عواهنه ، ما تواتر وشاع ، ومنهم من التمس التشويق والترغيب ، أو استجاب للطلب بعرض السقط مع السليم .

أغربهم من ينقل الرواية . دون التثبت من صحتها ، وهو أقرب ما يكون إلى مصادرها . لا يكلف نفسه عناء الوصول إلى الأصل ، وهو عند متناول يديه ، لا سيما ذاك الذى ينقل عن الغربيين ما يكتبون عن الشرق ، لفرط التعويل على ما يصدر عنهم : كما يقول جرجى زيدان ، ولفقّر مكتباتنا ، وضآلة مراجعنا .

أما أولئك المستشرقون فكثيراً ما يخطئون الهدف ويعدون الصواب في المواضيع الشرقية التى توافر لها المعلومات والمصادر . فكيف بهم حين يعالجون رموزاً عصيّة الحلّ ، حفلت بها كتب هذا المذهب الباطنى ، حتى استعصت على غير المثقّين فيها . المتفقّين لأسرارها . فإنها وُضعت للمستعجيين بعد تدريجهم . وفيها من المطاوى والألغاز مما سأفرد له فصلاً خاصاً .

من أعلام الغربيين الذين كتبوا عن الدروز أخصّ بالذكر سيلفستر « دى ساسى » بكتابه « عقيدة الدروز » . و « فولناى » واللورد « دقّرين » . والكولونل تشارلز « تشرشل » الذى أقام عشرين سنة في هذه البلاد . وجيرار « دى نزال » . ومن المعاصرين « بورون » الذى ترجم كتابه إلى العربية عادل تقي الدين . والمحقق الألمانى « مولدر » بكتابه « درّ إسلام » . « جديعهم توخّوا الصواب ، وإن لم تتمّ لهم الإحاطة .

ولكن بعض المعاصرين أمثال « ادلر » ، و « غيى » ، و « كارا دى فو » ، وجان وجيروم « تارو » ، عوّلوا فيما كتبوا على إشاعات وتقولات ومصادر

مشوبة بالأضاليل . حتى إن « دى فو » يدهشنا ، بل يذهلنا ، باستهتاره ، إذ يقول فى « انسيكلوبيدى إسلام » ما يلى : « إن الدروز . على وجه الإجمال ، قليلو الدين . . . يزعمون أنهم مسلمون . . . لا هياكل عبادة لهم . . . يقولون بتقمّص الأشرار فى الكلاب . . . يسمحون بتعدّد الزوجات . . . يقال إنّ الزواج بين الإخوة والأخوات يمارَس أحياناً . . . لإنهم متهمون بترأخى الأخلاق ، وعبادة العجل الذى يبدو تمثاله فى حفلاتهم !!! » . . .

إذا كان هذا الهراء الطائش . بل الهذر الفاحش ، يكتتب فى عصر العلم والنور ، فكيف يُلّام المتقدّمون على الهفوات ؟ وكيف نعتب على مواطنين ردّوا هذا الهراء الذى أخذوه فيما أخذوا من العلم والإشعاع عن الغرب ، بعجّره وبُجّره ؟ وبعد هذا التشنيع أى عذر بقى للدروز فى تقاعسهم عن إظهار حقيقتهم للعالم المستطلع ؟ وأى مبرّر يلمسون لتركها تُشوّه هذا التشويه ، وهم عنها قاعدون ؟

من مؤرخى العرب القدماء اثنان لم يقصدا التشنيع على هذه الملة ، بل تناولا بالنقد من تقدّمهما فى ذلك ، هما « المقرئى » فى « خططه » وابن خلدون فى « عيبره » . وجاء بعدهما من سطا حتى على عنوان كتاب المقرئى : « اتعّاظ الخنفا بأخبار الفاطميين الخلفاء » . فاستبدل بلفظ « الخلفاء » « الخلقاء » ، مفسراً إياه بقوله : « الخلقاء — بالقاف — من خلق الإفاك » ، بعد أن حذف لفظ « الأئمة » ، الذى وضعه المقرئى قبل « الخلفاء » تأكيداً للمعنى المقصود ، وكان قد ردّ على المؤرخين الذين ينكرون انتساب الفاطميين إلى فاطمة الزهراء [الخطط ج ٢ — ص ١٥٩] . وهو « من المؤرخين السنيين القلائل الذين أيّدوا النسب الفاطمى » — كما يقول الدكتور الشيال — مثلما أيّده ابن خلدون .

وفوق إنكار النسب يزعم « ابن خلكان » فى كتابه « وفيات الأعيان » أنّ الحاكم بأمر الله تعصّب للمذهب وسب الصحابة : سنة ٣٩٥ . . . مع أنّ المذهب لم يوضع إلا بعد سنة ٤٠٧ هـ . وواضعه حمزة ، لا الحاكم ،

أى بعد ١٢ سنة من الزعم ... على أن المقرئ يقول إن الحاكم عمده سنة ٣٩٥ ذاتها إلى إصدار قوانين بدافع الشعور الدينى ، لإصلاح الأخلاق ، وتطهير نفوس المجتمع من الرذائل [الخطط ج ٢ ، ص ٣٤٢] كما أنه فى السنة نفسها أصدر أمانته المشهور ، وسمّاه « أمان جدنا محمد خاتم النبيين وأبينا على خير الوصيين » . ويقول ابن خلدون [العبر ج ٤ - ص ٦٠] : « وأما ما رُمى به فغير صحيح ، ولا يقوله ذو عقل » . ويضيف الدكتور جمال الدين سرور : « ليس هناك ما يثبت أن الحاكم ذهب فى تصرفاته الدينية إلى حد الخروج على قواعد الإسلام . . . وعقيدة التأليه مستمدة من معتقدات متطرفة الشيعة ، فكان بعضهم يعتمد أن علياً وخلفاءه من الأئمة ليسوا بشرأ عاديين » .

الأسطورة :

ليس كتابى هذا تاريخاً لأتباع المذهب ، بل للمذهب نفسه ، فإن أتباعه مجموعة من العشائر والأفراد الذين استجابوا للدعوة ، فلا يصحّ لهم تاريخ إلا منذ بدء الاستجابة ، أى منذ ما يناهز ألف سنة ، لا أكثر ، اللهم إلا إذا استُمرّد بعض العشائر والأسر العريقة السابقة للدعوة . أما بعد الدعوة فإنهم عزلتهم واهتناعهم عن الاختلاط بسواهم ، على مرّ الزمان ، أصبحت لهم مزايا سلالية ، نكاد نسميها عنصرية لطول مداها ، وفقدوا اسمهم الأول « الموحدون » وصاروا يسمّون الدروز ، أو « بنى معروف » كما يفضلون .

بسبب هذه المزايا والملاحج الخاصة فى معظمهم ، كثر الخدس والتخمين فى أصولهم ، وجمحت الآراء بالاستنباط والخذلة ، كأنما هى تُعرض مُستَهينة بفعل ألف سنة فى تطوير جماعة من الناس انطوت على نفسها ، بأواصر الخلط .

فإن بعض الكتاب الفرنسيين الذين أعجبوا بفروسية الدروز وشبههم زعموا أنهم متحدرون من « الغاليين » الذين أبحروا من « غارون » فى غرب فرنسا إلى « نسايا » فى مقدونيا ، فشواطئ آسيا الصغرى ، مستندين فى زعمهم هذا

إلى غلبة العيون الزرقاء والبشرة المشرقة فيهم ، وتشابه الملامح « الألبينية » ، وأن هؤلاء « الغالين » لجأوا إلى « الجبل الأعلى » الذى كان معقل الدروز فى القرون الوسطى ، بالقرب من حلب ، وإلى لبنان ، الذى كان يسكنه « جبل الدروز » حتى عهد قريب .

والأسطورة الأخرى التى شاعت فى أوروبا فى القرن الثانى عشر . وكان لها أثر فى حسن العلاقات بين البابا وفخر الدين . رددها « بوجيه سان بيير » سنة ١٧٦٣م ، وهى أن الصليبيين لما ضعف شأنهم فى ذلك القرن . ولم يتمكن القائد « درو » وجنوده من الالتحاق بالجيش المهزومة ، لجأوا إلى العشائر الجبلية المسالمة لهم ، وباختلاطهم بهم حُرِفَ اسمهم إلى « دروز » ، (بصيغة الجمع الفرنجى) .

هذه الأسطورة قامت على مصادفة : هى أن صلاح الدين قضى قضاء نهائياً على أتباع حمزة فى مصر ، فأوغر بذلك صدور إخوانهم الدروز فى ديار الشام ، حيث تجمع أكثرهم فى الجبال ، خصوصاً حول « حرمون » (جبل الشيخ) . ولما هزم صلاح الدين الكونت « درو » سنة ١١٩٠م قيل إن الكونت وجنده لجأوا إلى حماية أبناء تلك الجبال .

ولكن « قولناى » ، العالم الفرنسى الذى ظل أربع سنوات ، فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، يدرس ، فى مصر وسوريا أحوال شعوبهما ، ينسب هذه الأسطورة بحجة أنه لم يجد أثراً للغة الفرنسية فى كلام الدروز . ثم إن الدروز سبقوا أولئك الصليبيين بمحاولى قرنين . فلم يبق لهذه الرواية سوى احتمال ضعيف واحد غير مستبعد ، هو أن فلول الصليبيين المهزومة التى وجدت الحماية عند عشائر الدروز ، وانقطعت الصلة بينها وبين قوادها وأمرائها ، فى فوضى ذلك الزمان ، اختلطت بتلك العشائر التى لم تكن قد تشددت بعزلتها بعد .

أما ما يروى عن الأمير الدرزي فخر الدين ، وقوله ، فى منفاه ، للبابا وأهل توسكانيا إنه يسمُّ إلى الصليبيين بالنسب ، فهذا ، إن صدق الراوى ، تودُّ سياسى إلى عاهل طموحٍ ترجى نجاته .

رموز الباطنية

الباطنية مذهبٌ خفىٌ اتخذهُ أصحابه وِقَاءً من نقمة الحائفين والغوغاء ؛ وطَوَّوهُ على معانٍ خُصِّصَتْ بها فئة مختارة من العارفين . شَرَّعَهُ اليونانيون القدماء ، وحَصَرُوا أسرارَهُ بالمطلَّعين من النُبهاء . فهو منسوب إلى أرسطو وأفلاطون وأتباع فيثاغورس .

من هذه المصادر الثلاثة انحدَر المذهب إلى الدروز الذين يعتبرون هؤلاء الفلاسفة أسيادهم الروحيين . فطبَّقوه على التعاليم الإسلامية : ثمَّ حاطوه بالحذر والكتمان حتى اليوم . كما أنه استهوَى سواهم من الفرق الباطنية في الإسلام المنفتحة للتيارات الفلسفية .

إنه في الأصل اجتِهَاد فلسفي لإدراك الحقيقة الإلهية ، وتجريد للروح من سطحية المعتقد الديني ، وشوق صوفيٍّ للدُنُو من معرفة الله ، استِجْماعٍ في خلافة الحاكم بأمر الله وسيلةً جانبيةً لتوسيع السلطة الفاطمية وتوطيد أركانها ، ولكنه لم يملك من الطاقة الاجتماعية ما يضمن له الانتشار حين سلك إلى السياسة طريقاً دينيةً ، وإنَّه هو شبَّ في النفوس حرارة وجدانيةً كتلك التي تبعثها النزعات الصوفية .

واستعمل أتباعه ألفاظاً واصطلاحات خاصة لا يفهم مؤدَّاها إلا المؤمنون على الأسرار . حِفَافاً على سلامتهم من أهل السنة فيما يذهبون إليه ، وتسهيلاً لِسَهِّهِ دون استثارة مَنْ يخالفهم فيه . فقد اعتبروا بما آل إليه أمر المعتزلة ، حين خالطت السياسة العقيدة ، وتشابكت فروعهما . فكانت الحيلةُ آمَنَ لَحمٍ وأضْمَنَ لانتشاره . ولا سيما بعد تَشَتُّتِ دُعَايِهِ . واضطهاد الأتباع في الدولة الفاطمية التي نشأ المذهبُ في ظلها ، ومنها امتدَّ إلى سائر الأقطار ، وأصبح الاتصالُ بين مركز الدعوة والأقاليم من أشَقِّ الأمور ، حتى إنَّ الرسائل التي كتبت بعد عهد الحاكم لم تُسْتَهْلَ بِذِكْرِهِ كما كانت تُسْتَهْلُ

الرسائل التي كتبت في عهده ، ولم يكن فيها ما يدل على المذهب ، بل كانت تبدو عادية ، مبالغة في التحفظ والاحتراش ، وإغراقاً في الرموز والكُنْيات . وإلى مقتبس من رسالتين [٧٨ و ٩٢] ما يبين كيفية استعمال اللغة الرمزية ، وطرافتها في التستر والحذر :

« فإن كنتم تعتقدون أن هذه الضيعة مُحَبَّسَةٌ على الذي تقولون ... يأمر وينهى كما أوصاه مولاه ، وشرط عليه أن لا يحدث فيها حادث ، ولا يفرط في عمارتها ، ومتى استخدم فيها من يفرط فيها ، عزائه ... فيجب أن تعلموا أنه هو الذي ضمنها . والحصص ليست " لمسعود " ولا لغيره من الثلاثة الذين كتب عليهم الوثائق ... إن هذا الرجل قد أخلف الظن ، وأفسد الضياع ، ولم يعمرها ، وأباح أهلها من القبائح والمساكر ما لم يُسمع عندنا ... كل هذا مستور عن صاحب الضيعة حتى آل أمرهم إلى الهلاك ... إنه كان يفرض على الفلاحين أعمالاً يؤدونها ويقول لهم أنا أحمله لصاحب الضيعة . لقد كذب ... »
 « يا إخوة ! إن من يعتقد أن الله حق ، يتحقق أنه لا يستخلف على العالم إلا عادلاً منصفاً منزهاً عن الجور والظلم ... فأنصفوا نفوسكم بالتفكير بالحق ومعرفة أهله ... واغتنموا زمان الإمهال ، وتقرّبوا إلى الله بصالح الأعمال ، قبل طي الصحائف وجفاف الأقلام ... فهذا الوقت الذي قيل فيه " يكون القابض على دينه كالقابض على الجمر " ... »

« فافهموا معنى هذا الكتاب لكل من ذكر أنه يطلب نجاة نفسه ، في ستر من الثقات ، لئلا يقوم عليكم من يرى أن له أمراً ونهيّاً ... وليس في الدين إكراه ولا إجبار ... »

« وأنا في يومى هذا راكب إلى أنطاكية (من مُعْتَكَةِ في الإسكندرية) ، هارب من سماع هذه الفضائح ... »

ومن الرسالة ٩٢ : « ... إنه خرج من عندنا بالبضاعة ، ونحن به واقفون ... وقد علم الشيخ أيده الله أن التجارة بصر قد كسدت ... ولم يبق في كل بلدة غير السمة القديمة والذكر ... »

ثم تنهى الرسالة بما يلي : « والحمد لله رب العالمين ، وسلامه على رسوله خاتم النبيين ، وآله الطاهرين ، والأئمة المرّضيين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . وقد أرخت الأسعار بالفسطاط بحمد الله ، والماء فشرف على كل خير من الزيادة والبركة والأمن » ...

ويجعلون للآيات وللألفاظ معاني باطنية ليس من الفضول لإيراد بعضها وتفسيرها :

مثلاً ، يفسّرون « وسع كرسيه السماوات والأرض » من آية الكرسي [السورة ٣ الآية ٢٥٥] بأن الآية هي « العقل » [الرسالتان ٨ و ٢٩] ، و « الكرسي » أو العرش بأنه الوحي أو علم التوحيد المودع في العقل .

والكافور في الآية : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً » [سورة ٧٦ الآية ٥] بأنه النعمة والسعادة والرضى . وهكذا يتناولون بالتفسير الآيات والأمثال مما لا مجال لسرده . وأكتفى هنا بانتقاء بعض الألفاظ :

السماوات السبع هم الأئمة السبعة ، من إسماعيل إلى المهدي . « ملكوت السموات » دين التوحيد . « الصخرة » ، التي بُنِيَ عليها البيت = « العقل » . « السَّيْل » حمة الدجال التي لا تقوى على الصخرة . « الاعتراف » = الندامة . « القربان » = العمل الصالح . « جنة المأوى » = دعوة التوحيد . « سدرة المنتهى » = الإمام . « النوران » = العقل والنفوس . « الجديدان » = النهار العقل ، والليل الضد . « الودائع » = الأعمال الصالحة . العذاب والثواب = الشرك والتوحيد . الثوب = السر . الحجاب = الناسوت . الحنادس = الشرائع الباطلة . الحجج = الحلود الأربعة . الطيور الأبايل = « عبيد مولانا جل ذكره » . الصلاة = صلة القلوب بالتوحيد ...

تنطوى على مثل هذه الباطنية بجميع المذاهب ، وإن لم تبلغ هذه الدرجة من التورية . فإن الآية القائلة : « ما جئت لألتي سلاماً على الأرض . ما جئت لألتي سلاماً بل سَيْفًا » [إنجيل متى ، الإصحاح ١٠ ، العدد ٣٤] لا تعني ظاهر مفهومها . ولا الآية : « إني جئت لأفرّق الإنسان ضد أبيه ، والابنة

ضد أمها » [العدد ٣٥ من الإصحاح نفسه] . ولا العدد ٢٦ الإصحاح ١٤ من إنجيل لوقا : « إن كان أحد يأتي إلى ولا يبغض أباه وأمه وأخواته وأولاده ، وإخوته وأخواته ، حتى نفسه أيضاً ، فلا يقدر أن يكون تلميذاً لي » . ولا قوله : « أما أعدائي ، أولئك الذين لم يريدوا أن أملاك عليهم ، فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامي » (لوقا ١٠ عدد ٢١) .

هذه الأقوال تفسرها « الحكمة » تفسيراً باطنياً يختلف عن مؤداهما اللفظي ، إذ لا تصح نسبة معناها الظاهر إلى ملك السلام والمحبة القائل « أحبوا أعداءكم ... » كما تفسر قول القرآن (الآية ٨٩ السورة ٤ ، النساء) : « فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم » عن المرتدين تفسيراً يختلف عن ظاهر اللفظ . وقد وجّه نقدٌ يتّهم الدروز بظاهر أقوال مماثلة ، أكبر برهان على نفيهِ ما يتحدّون به من سماحة في الأخلاق ، ورعي للذم ، وصيانة وتعفف ، وتكريم لشعائر سواهم . وكما وهبوا رهبان النصراني من أديار وأطيان ، حين كانت لهم اليد العليا في لبنان ، إن لم نقل حين كانوا الأسياد فيه حتى إنّه سُمّيَ باسمهم ، وهم أوّل من شيد كيانه السياسي في التاريخ . لا يححد ذلك إلا الكافرون بالنعمة الكيانية التي يرتعون في بحبوبة امتدادها اليوم آمين .

فإننا نسمع من ينسب إليهم أوراهاً هم عنها مترفعون ، ولها منكرون . ومن أسخف ما نُسبَ لي أنّ محاكم « جبل الدروز » ، الفرنسي في زمن الانتداب ، كان يعتقل من يتنحّض ، مدّعياً أنّ الدرزيّ يقصد بها اللعنة ، وكرّرت هذا الادعاء في منزلي أديبة لبنانية كبيرة نشأت بين الدروز . وهي تعلم أنّهم لا يستترون في عدائهم ولا يجبنون . وللتاريخ يشهد لهم بأبل ضرور الفروسية والشهامة والبطولة ، وخوض غمار الثورات ، حتى في سبيل سواهم . وأقرب مثل لنا على ذلك ثورة سلطان الأطرش من أجل لاجئ اسمه أدهم خنجر اللبناني ، غير الدرزيّ ؛ والثورة الكبرى ضدّ الانتداب الفرنسي في سوريا ، والدروز فيها قلة حَسَمَت أعباء الكثرة بطولتهم ، وجاوزت نسبة تضحياتهم للقضية العامة ، كلّ حدّ .

مراتب الباطنية

« التوحيد » غير « الباطنية » ، وإنّ هو انبثق منها ، أو انشق عنها ، واشترك في كثير من مراتبها ومناسكها وتعابيرها ، حتّى ليتبادر إلى الذهن أنّهما عقيدة واحدة . وسنعرض لأوجه الشبه والافتراق فيما يلي من هذه المراتب الروحية بمنتهى الإيجاز والجهد في الإيضاح .

الباطنية تعتبر « العقل » و « النفس » بمثابة الأب والأم للوجود الإنساني . منهما يستمدّ سائر « الحدود » وجودهم ؛ وهم : « الكلمة » المنبثقة من « النفس » بواسطة العقل . و « السابق » المنبثق من « الكلمة » بواسطة النفس . و « التالى » الذى يستمدّ سلطته وقدرته من السابق . هؤلاء هم الحدود الخمسة .

ولكن في التقسيم الباطنيّ يطلّق نعت « السابق » و « التالى » على الأوّل والثانى من الحدود ، أى على العقل والنفس . فالعقل أصل الوجود . باتحاده بالنفس يتكوّن منطق الحياة ، أى الكلمة ، أو المعرفة التى تنقسم إلى ما سبق منها وما يليه على توالى الأجيال . بهذه المعرفة يرتفع الإنسان نحو « العقل الكلى » . في طريق الكمال ، إلى نهاية الدهور .

وتُنال المعرفة بواسطة « الجدل » في طلب العلم ، و « الفتح » في ميادين الواسعة : و « الخيال » فيها يركز تصوّره . وهى ترمز إلى متممات الوجود في مراحل تلك الطريق .

في شرح هذه العناصر ، وهى خمسة في الباطنية وثمانية في التوحيد ، وردّ : أنّ جوهر « النفس الكليّة » ، أى الفعل والصورة ، جاء من « العقل الكلى » ، أى من العلم والقوّة . ومن جوهر النفس برز جوهر « الكلمة » الذى منه جوهر « السابق » « فالتالى » ، وهما غير السابق الأوّل وتاليه « النفس » الكليّة .

ثمّ ظهرت « النفوس الناطقة » من « التالى » . فبرزت الهيولى ، والهيولى جوهر بسيط قابل للصور . هو مادّة الوجود .

وورد في شرح « السابق » والتالى « الأخيرين : أن السابق وُصف بالبرودة
« لأجل سكن العلم واستقراره ببرودة الحلم وهدوء الوضع » . ووُصف التالى
بالحرارة ، لما فيه من اليقظة ، والحركة ، والشوق لأخذ العلم عن السابق . ولحاجته
لإظهار الفوائد لمن هو دونّه أو بعده .

إن المراتب الخمس روحانية وجسمانية : لا يدرك كنه ترتيبها إلا الراسخون
فى علم الباطن . فالرسالة « ١٧ » تقول :

« لكلّ حدّ ، فى العلوّ روحانيّ . حدّ . فى السفلّ ، جسمانيّ ، يقوم
مقامه » . « فالناطق » يقوم مقام السابق . و « الأساس » يقوم مقام التالى .
والإمام يقوم مقام « الجدل » . و « الحجّة » مقام « الفتح » . و « الداعى »
مقام « الخيال » .

فيكون ترتيبهم كما يلى :

٥ سماويون	بإزائهم	٥ أرضيون
١ - السابق	يقابله	١ - الناطق
٢ - التالى	»	٢ - الأساس
٣ - الجدل	»	٣ - الإمام
٤ - الفتح	»	٤ - الحجّة
٥ - الخيال	»	٥ - الداعى

تقول عنهم الرسالة ١٥ : « السابق والتالى والجدل والفتح والخيال ، والناطق
والأساس والإمام والحجّة والداعى ، كلهم عبيد لمولانا جلّ ذكره : موجودون
فى عصرنا هذا . مشخصون . . . »

وفى محاولة التقريب بين الباطنية وفرعها التوحيدى ، يُصنّف الداعى
والمأذون والمكاسر ، فى مكان آخر : بأنهم الجدل والفتح والخيال [الرسالة ٣٨]
هؤلاء الثلاثة مع الخمسة العلويين هم المقصودون بقول حدّزة [الرسالة ١٣]
لأنهم « حملة العرش الثمانية » المذكورون فى القرآن [سورة ٦٩ الآية ١٧]

بقوله تعالى : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » .

أما بهاء الدين [الرسالة ٥٧] فإنه يصنفهم كما يلي :

- ١ - علة الإبداع ، العقل . ٢ - المشيئة ، النفس . وهو أول الحدود الأربعة الذين يسلوونه . باعتبار العقل فوقهم جميعاً ٣ - المشيئة ، الكلمة ٤ - الثلاث : السابق ٥ - الرابع . التالي .

ويلى هؤلاء : ١ - الدعاة ٢ - المأذنون ٣ - النقباء . أو المكاسرون . ثم يأتي بعدهم المستجيبون ، الموحدون ، على هذا الترتيب ، وإن كانت الرسالة « ٢٠ » تميز بين النقباء والمكاسرين حيث يجعل « المجتبي » أى النفس خليفة العقل « على سائر الدعاة ، والمأذنين ، والنقباء . والمكاسرين » . ولعل ذلك التفريق تنظيم جديد أحدث فيما بعد فى جهاز الدعوة . مما سنأتى على ذكره بالتفصيل . تصف الرسائل السماويين . أو الروحانيين : الخدمة المذكورين آنفاً ، بأنهم « خمسة روحانية » . ولهم فى مواضع كثيرة أسماء وألقاب مختلفة لا مجال لسردها جميعاً . فإن العقل مثلاً يسمى « ذا معة » ، والنفس « ذا مصة » . والكلمة « الجناح » : عند ما لا يقصد بأنه أحد الجناحين : الأيمن والأيسر . فالجناح الأيمن - عند التخصيص - هو « السابق » : والجناح الأيسر هو « التالى » . ولذلك . من باب التمييز . يطلق أحياناً على « الكلمة » أى ثالث الحدود . لقب « الجناح الربانى » .

وكم يقع القارئ ، غير الملم بالباطن . فى حيرة من جراء نعوت ومتواردات ومترادفات وكنايات لا يعرف دقة مدلولها إلا الشيوخ « المتقدمون » « كالقدرة » ، والمشيئة ، والكلمة ، والعزة . والإرادة . وقولهم إن السابق هو الكلمة ، مثلاً ، « هى هو وهو هى » الخ « كما جاء فى الرسالة « ١٣ » : « وبعضهم قالوا بأن الكلمة فوق السابق . لكنها هى هو وهو هى . لا فرق بينهما . . . »

إلى هذا أشار « المقرئى » فى كتابه « الخطط » بقوله إن هذا الغموض فى الملاحظات يوضح للمستجيب عند بلوغه الدرجات العليا فى علم الدين . إذ

يوضح له في الدرجة الثامنة [كذا] أن السابق سيد الوجود ؛ والتالى منبثق منه .
وهما متلازمان كالعلة والمعلول ، أو السبب والنتيجة . وأن التالى قد يصل في
تكامله إلى درجة السابق ؛ كما يستطيع « الأساس » أن يبلغ مرتبة « الناطق » ،
و « الداعى » مرتبة « الأساس » . ولعلّ هذا التداخل يقترب إلى الأذهان أمثال
نظرية الثالوث وما شابهها .

فلننظر في شأن الدعاة ، والمأذونين ، والمكاسرين ، قبل الإقدام على شرح
الفوارق في المراتب بين الباطنية والتوحيد ، أو الإشارة إلى تداخلها مما يستلزم
التوضيح جهده الاستطاعة ؛ ما دمنا في مجال التحقيق .

جهاز الدعوة

« النطقاء » هم الأنبياء واضعو الأديان المتعاقبة : نوح ، إبراهيم ، موسى ، عيسى ، محمد . لكل منهم أساس يتلوه ، وينشر ديانته ، ويفسرها ، ويؤوّلها . وللأسس أئمة يملكونهم ؛ عددهم سبعة . ولكل إمام ١٢ حجة في أقاليم الأرض ينشرون تعاليم إمامهم . ويتألف جهاز الدعوة . أو التبشير قبل إغلاق بابها ، من دعاة . ومأذونين . ومكاسرين :

١ - أما الدعاة : أى المبشرون بالدعوة . لاستمالة الناس إليها ، فإنهم ، مع المأذونين والمكاسرين . يأتون بعد « الحدود » ، فى التنفيذ ، لا فى التقديس . مستمدّين سلطتهم من « التالى » . وهم ليسوا خالدين فى منزلة روحية كالحدود . لكنهم يتحدّون بالفضيلة والمعرفة والتقوى .

بهذا يبدو واضحاً ماتعنيه الباطنية من تقسيم السلطة الروحية ، المتحدرة من « التالى » . آخر الخمسة الروحانيين ، إلى الدعاة أو الرسل الموفدين إلى الأقاليم لنشر دين التوحيد كما يُستبدل من الاسم الذى يحمله .

٢ - يليهم المأذونون ، « مَنْ أذن لهم فى الكسر والجبر » [الرسالة ٥٧] . يفسّر ذلك القول بأن مهجة الداعى إنما هى فى استمالة الضالين بأن « يكسرهم » ويخبرهم ويخبر جنّهم مما هم فيه من الكفر والشرك ، تمهيداً لإدخالهم فى المذهب الباطنى .

٣ - ويأتى بعدهم المكاسرون ، وهم المرشدون الذين يدرون على الأخطاء ، ويبينون الصواب . بهم يبدأ العمل فى سبيل الاستمالة إلى العقيدة الباطنية . « فيكسرون » أو يهدمون الخطأ ، ويضطرون الضلال ، لتتهيئة الناس وإعدادهم للاستجابة ، كما تدل قصة « صرصر » الذى « كاسره » أحد الدعاة فى الأحشاء ؛ ثم قدمه إلى « شطنيل » الحكيم الذى صيّر « داعياً » [الرسالة ١٢] . وكما توضح المعنى الرسالة ٦٥ بقولها : « ثم أنفذ إلى كثير من المواضع يكاسرهم

عن المقتنى ، أنه الإمام .

في زمن السّتر كان يُرمز إلى الداعي بكلمة « الجَدّ » : « لأنه يجدّ في طلب علم التوحيد من الإمام » ، ويُرمز إلى المأذون بكلمة « الفتح » : « لأنه يفتح للمستجيبين باب الإيمان » ، ويرمز إلى المكاسر بكلمة « الخيال » : « لأنه يلوّح بعلمه ومكاسرته مثل الخيال ، إذ كان له التأويل . بغير كشف ولا تبيان » . . . [الرسالة ١٧] مما يدعو إلى الحذر من الالتباس بين أسماء الأعلام والتعوت في مواطن كثيرة .
كان ذلك في زمن السّر .

وكان للدعاة رئيس ، في الباطنية . يسمّى داعي الدعاة ، له نفس المنزلة التي كانت لقاضى القضاة ، في السّنة . يرشد المستجيبين للدعوة العلوية ، دعوة الإيمان ، ويقوم بين يديه اثنا عشر « نقيباً » يُشرفون على مجالس الحكمة التي يؤمها « المؤمنون » . وهي غير المجالس الباطنية التأويلية المذكورة في الرسالة ١٥ ، فإن « الموحدين » يقولون : « إن الإسلام باب الإيمان ، والإيمان باب التوحيد » ، في التطوّر من التنزيل إلى التأويل فالتوحيد . والداعي في هذه المراحل « يجهد في أمور المستجيبين حتى يبلغهم الدرجات العالية » [الرسالة ١٧] .
في هذا التدرّج يقول حمزة (الرسالة ١٣) : « إنّ المستجيب إذا دخل في التوحيد على يد المأذون ، يقوم ذلك مقام من دخل على يد الداعي . ومن استجاب على يد الداعي يقوم مقام من استجاب على يد الحجة . لأنهم كلّهم يدعون إلى شيء واحد هو التوحيد » .

وعلى الداعي ، في القيام بمهمة الدعوة ، شروط ووصايا أخلاقية وأدبية صارمة . منها أنه ، حين يدعو النساء ويرشدهن إلى الإيمان . عليه أن يخفض بصره . ويصوّب نظره إلى كتابه ، وأن لا يتجّه صوّبهنّ حين يكلمهنّه . ومنها أنه لا يُجيب إلا عما يعرفه . وإلا فإنه يسأل من هو أعلى رتبة أو أكثر علماً منه .

بالداعي يقصد إجمالاً جميع هذه المراتب الخاضعة كلّها للشروط

المذكورة في النصوص . على أن المأذون تابع للداعى ، يتقيد بأوامره . وكذلك المكاسر التابع للمأذون . والمأذونون أكثر عدداً من الدعاة . ففى « تقليد الشيخ المختار » [الرسالة ٤٥] يقول بهاء الدين : « فلك بحق السيادة أن تنصب من المأذونين ، بعد الثلاثة الداعين ، ما وجدت إليه سبيلاً » .

قلنا قبلاً إن الجسد والفتح والخيال عند الباطنيين هم ، زمنياً ، الإمام والحجة والداعى . ولكن كثيراً ما يقع الالتباس بين أسماء الأعلام والنعوت كما ذكرنا سابقاً . فإننا نجد فى بعض الرسائل أن النفس « حجة » الإمام (العقل) ؛ والكلمة « الداعى » ؛ والسابق باب الحجة . على أن لقب الإمام ، فى كتب المرحّدين ، مختصّ بالعقل .

وفى رسائل أخرى يضاف الجسد والفتح والخيال إلى الحدود الخمسة الروحانيين . فيصبح الجميع ثمانية . ولكن الثلاثة المضافين يعدّون فى منزلة أدنى من الخمسة الأصليين . ولست أدرى إذا كان الضم على هذا الشكل من باب التسوية أو التقريب بين الباطنية وفرعها « التوحيدى » ، أى مذهب حمزة ، أم هو توسع فى النعوت والألقاب ، أم خطأ فى النسخ ، أم إدخال متعمد .

فإن حمزة فى بعض رسائله يسمّى العقل « السابق » والنفس « التالى » ، أى تالى العقل . ويضيف إليهما الجسد والفتح والخيال . كما فى الرسالة ٤١ بحيث يصبح الجميع خمسة ، لا ثمانية . ولكنه فى الرسائل الأخرى [الرسالة ١١ مثلاً] يميز بين الحدود « العلوية » الخمسة وبين الجسد والفتح والخيال الذين يضعهم ، كما قلنا سابقاً ، فى مرتبة أدنى . ويلحقهم بهم . أو يجعلهم بمنزلة الدعاة .

هنا لا بدّ من إلقاء نظرة عابرة على الالتقاء والافتراق ، فى ذلك ، بين التوحيد والباطنية . أو أثر الأصل فى الفرع ، مما يعرفه الملمّ بما بين الإسماعيلية والدروز من التقاء فى العقائد . حتى إن الدروز يعتقدون أن الإسماعيليين إخوانهم ؛ ولكنهم يسيرونهم بالتقصير .

بين التوحيد والباطنية

تجنباً للإطالة ، وحصرراً للبحث ، أجتزئُ بما أدخله حمزة من تعديل في مراتب الباطنية :

١ - إنه وضع فوق « السابق » و « التالي » - اللذين تعدّهما الباطنية أوّل وثاني الحدود - ثلاثة روحانيين . أسمى رتبةً ، هم : « العقل » ، و « النفس » ، و « الكلمة » . وقد سبق شرح مراتبهم وتفسير مغزاها .

٢ - حذف من حدود الباطنية الخمسة ثلاثة هم : « الجَدّ » ، و « الفتح » ، و « الخيال » ، وألحقهم بحدود التوحيد الخمسة . وقد قلّ ذكرهم في رسائله مع ما رافق ذلك من غموض حاولت جلاءه وسعّيته .

٣ - جعل « الناطق » و « الأساس » من حدود . أو أنبياء . التنزيل ، أى علم الظاهر في الدين . واستعار بعض نعوتها لحدود « التوحيد » ، منبهً في الرسالة ١٧ بقوله : « واعلموا ، هداكم المولى ، أن جميع الأسماء المتعارفة بين المؤمنين - مثل السابق ، والثاني ، والجَدّ ، والفتح ، والخيال ، والناطق ، والأساس ، والإمام ، والحجة ، والداعي - تقع على محبود ومذموم ... وكلّهم موجودون في كلّ عصر وزمان » .

٤ - جعل للحدود ظهورات بشرية : حيّة ، في الأدوار المتعاقبة . بينما اعتبرتهم الباطنية الأخرى حدوداً غيبيةً ، روحانية غير منظورة . فإنه يقول : « الروح لا تدرك إلا بالجسم » [الرسالة ٩] . وبالرسالة ١٥ يجمع بين الظاهر والباطن بقوله :

« ليس كلّ من عرف باطن شيء وجبّ عليه ترك ظاهره ، ففي الأشياء ما لا يترك ظاهره ولو علم تأويله على سبعين وجهاً ، منها الطهارة ، وباطنها البراءة من الأبالسة وطهارة القلوب من محبتهم ... ويجب على من عرف الباطن أن يزيد في طهر الظاهر » . . .

هـ - في المقارنة بين الباطن ، والظاهر ، والتوحيد ، يقول إنَّ الحقيقة هي معرفة التوحيد . وتقول الرسالة ٣٦ إنَّ الدين « الظاهر من قبَلِهِ العذاب ... والباطن (أى التأويل) فيه الرحمة » (أى فيه مذهب التوحيد) ... وهو (أى مذهب التوحيد) المراد بقول القرآن : « فَصْصِرْ بَيْنَهُمْ بَسُورَ لَهُ بَابٌ ، بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ . وَظَاهَرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ » [الآية ١٣ السورة ٥٧] « ولم يقل هو الرحمة . وفي الشيء ما أُودِعَ فيه : وليس هو الشيء بعينه . فدلَّ بأن الباطن (أى التأويل) يدلَّ على الرحمة (أى التوحيد) . »

وفسرت الرسالة ٣٨ هذه الآية بقولها : « السور الشريعة . والباب الأساس كما قال الناطق : أنا مدينة العلم وعلى بابها . الباطن (أى التأويل) وهو باطن التنزيل (فيه الرحمة) (أى « حكمة » التوحيد) دليل على أن الرحمة غير الباطن (أى أن « الحكمة » غير التأويل) ... والقائم (أى « العقل ») صاحب الرحمة . »

وتشرح الرسالة « إخراج الموحدين من الظاهر والباطن إلى المسلك الثالث وهو مسلك التوحيد . . . فأهل الباطن مؤمنون . وأهل القائم موحّدون . »

وتوضح . ومثلها تفعل الرسالتان ٩ و ٢٢ ، منازل الحدود . فتقائم الزمان هو العقل الكلى . وهو يستثنى من الحدود الخمسة . لأنه يقوم بفرق كبير بين العقل والأربعة الآخرين . فإنَّ العقل يتلقى الحقيقة مباشرة من الله . وسائر الحدود يستمدونها منه .

هؤلاء الخمسة هم العلويون . أمّا الثانويون فعدددهم ١٥٩ . فيصبح الجميع ١٦٤ . هم أحرف « السدق » - بالسين بدلا من الصاد - في مراتب يطول شرحها ، وفي حساب يُسمى حساب الجُمَّل ، يتخذونه دليلاً على التوحيد وعلى عدد السادة المذكورين [س = ٦٠ + د = ٤ + ق = ١٠٠] فيصبح المجموع ١٦٤ حدّاً . وهذا الحساب بشقيهِ « الصغير » و « الكبير » كثيرُ الورد في النصوص الرمزية .

وفي « كتاب النقطة والدوائر » أنَّ الأصلين هما : العقل الكلى والنفس

الكلية . يليهما : الكلمة ، فالسابق ، فالتالى . هؤلاء الخمسة هم « أصولُ العالم الروحانى . مشتركة الإعلالية والتأثير فى النفوس الناطقة (أى الأرواح) . والنفوس الناطقة هى العالم الروحانى »

« والنفوس الناطقة عاقلة ، عالمة ، حيّة ، جوهرية شفّافة ، قابلة للصور . فهى تقبل الجهل ، كما تقبل العقل دائمة الانتقال من جسم إلى جسم » ... وهذا جميعاً سيأتى تفصيله فى الفصول الآتية .

العقل

جاءَ في « الحكمة » أن الله خلق ، من نوره الشعشعاني ، « الإرادة » ، صورةً كاملة صافية . هي هيولى كل شيء . وبها تكوينهم . فإنه إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون . « وسمى تلك الصورة ”عقلاً“ . فكان العقل كاملاً بالنور والقوة . تاماً بالفعل والصورة . . . وأحصى فيه جميع ما هو كائن ... إنه موجود في كل عصر وزمان . وهو ”السابق“ الحقيقي » [الرسالة ١٣] .

جعل الله علّة العلل . وأصل « نقطة البيكار » ، المحور الذي تدور عليه جميع العقائد والأفكار ... به فخر العالمين ، في أمور الدنيا والدين . « وجعل منازلهم على قدر ما يقتبسون من نوره ، ويستقون من بحره العذب الزلال » . لقد سُمّيَ السابق « لأنه سابق في الإبداع . سابق في معرفة الله . سابق في التوحيد ، والدرجة ، والعلم » ... والمعرفة أساس كل شيء . بها يحتوى العارف كل ما هو حوله وما فيه .

وسمّي العقل « لأنه يعقل ما يأتيه من وحى الله . ولأنه عقل الكون كله ، ودبره . وأحصى أعمال الخلائق كلها . ولأنه يعقل نفسه عن كل ما لا يريد الله » .

قال الله : لا يدخل جنّتي أحد إلاّ بالعقل وبمحبتة . والجنة هنا دين التوحيد والمعرفة الصحيحة .

وقال العقل عن نفسه : « الحمد لمن أبدعني من نوره . وأبدى بروح قدسه وخصني بعلمه . وفوّض إلىّ أمره . وأطلّجني على مكنون سرّه » . فلما أعجبت العقل نفسه : أبدع له الله : من طاعته معصية . ومن نوره ظلمة . ومن تواضعه استكباراً . ومن حلمه جهلاً .

هذه الطباع الأربع المذمومة هي طبائع « الضد » . منبعثة من الغرور . امتحنه الله بها ليظهر له عجزه .

فلما أحسّ بعجزه طلب من البارئ المغفرة . وسأله أن يمنحه معيناً على

الضد ، ينوب عنه لدى الموحدين في الدفاع عنهم ، « ليستغنى به عن مخاطبة الضد » . فأبدع الله تاليه في الرتبة ، « النفس » . وجعله « ذا مصته » ، أى أنه يمتص منه العلوم الروحانية والحقيقة الربانية . ويتلقى أوامره . ويتمتع « بنصف الحركة والفعل » . رامزاً بذلك إلى القاعدة القرآنية : « للذكر مثل حظ الأنثيين » . باعتبار العقل بمنزلة الذكر ، والنفس بمنزلة الأنثى . وسائر الحدود أولادهما . مجازاً . وهم الكلمة . فالسابق (المسمى أو لهم في الباطنية الإسماعيلية) . فالتالى (الذى كانت تعدّه الباطنية ثانیهم) . ولتمييز العقل عن السابق الباطنى ، سمّى « السابق الحقيقى » .

تصف الرسالة ٣٩ كيف خلّق من محض نور الله ، وكيف أوجِدَت فيه الأشياء كلها دفعةً واحدة . وعُقِلَت به جميع المخلوقات . وجُعِلَ أصل المبدعات ، مؤيداً بالقوة الإلهية والمادة العلوية ، آمناً من النقصان .

كان أول ظهوره البشرى في زمن البار . وهو يقول : [الرسالة ١٤] « المولى سبحانه اصطفانى . وأبدعى من نوره . قبل أن يكون مكان . ولا إمكان ولا إنس ولا جان ... » وتُحسب المدة « من وقت إبداعه إلى حين ظهور آدم الصفا ٧٠ دوراً . بين كل دور ودور ٧٠ أسبوعاً . بين كل أسبوع وأسبوع ٧٠ عاماً . والعام ألف سنة مما تعدّون » ... أى أنها ٣٤٣ مليون سنة .

مثل هذا الحساب ورد في رواية عن العباس بن عبد المطلب أن الرسول قال : « بين السماء والأرض مسيرة ٥٠٠ سنة . ومن سماء إلى سماء ٥٠٠ سنة . وكُشف كل سماء ٥٠٠ سنة . وبين السماء السابعة والعرش (يفسّر يوسف على ، مترجم القرآن إلى الإنكليزية ، العرش بأنه المركز والقدرة والمعرفة ورمز السلطة) . بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض (أى ٥٠٠ سنة) . والله سبحانه وتعالى فوق ذلك . ولا يخفى عليه شيء من أعمال بنى آدم » . على أن بعض علماء السنة ، ومنهم الشيخ عبد الرحمن حسن حفيد محمد بن عبد الوهاب ، يشيرون إلى ضعف هذا الحديث . أما الدروز فيفسرونه باطنياً .

كان بارمسيديس ، أبو الغيبات ، يقول : « ما يمكن التفكير به ، وما يمكن أن يكون ، هما شيء واحد » . بهذا المنطق في معالجة المسائل الغيبية ، وخلافاً لزعم الواقعيين « أن الواقع مستقل عن الفكر » ، توخى المثاليون إدراك كنهه الوجود . زاعمين أن العقل محور الواقع ، ولُبَابُ الحقيقة ، ونبوع الخير والجمال .

وبعد أربعة قرون جاءت العقيدة الدرزية تؤلف بين الصوفية وهذه المثالية . فجعلت العقل « الكلي » ، المنبثق من الله ، أصل الوجود . ذاهبةً بذلك إلى أن الله المخلّ خلق أولاً العقل ، علة الأشياء كلها . وأبدع من نوره الكائنات . يشترك بهذه العقيدة إخوان الصفاء والمعتزلة والإسماعيلية ، الذين يقولون بأن العقل البشري ، باتصاله بالعقل الكلي ، يحصل على الحكمة وإن الصلة بينهما كالصلة بين الطاقة والمادة . لا ينفصلان . بواسطتها يقرب الإنسان من الله . وبنسبة هذا الاقتراب يواجه الحقيقة ، ينبوع السعادة :

وبرون عن رسول الله قوله : « أول ما خلق الله العقل قال له أقبل ، فأقبل . ثم قال له أدبر فأدبر . فقال : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم على منك . بك آخذ ، وبك أعطي . بك أثيب ، وبك أعاقب » . ويقولون إن العقل الإنساني هبة الله التي بها يتجاوب مع العقل « الكلي » ، ويقتبس منه . ليدرك إرادته تعالى . ويميز بهديه بين الخير والشر ، والحق والباطل ، قبل سن القوانين وإنزال الشرائع . بل إنه لا يزال الحكم فيما غمض منها ، أو في تعارضه مع هذا التجاوب العقلي .

لم ينفرد هؤلاء بهذا الرأي . بل شاركهم فيه كثيرون من أعلام المسلمين كالتاراجي وابن رشد . وغيرهما ممن تأثر بالروح الفلسفية في ذلك العصر . فقد واجه الإسلام في إبان تيارات فكرية . نهض لها . واشتد بها ، وأقبل عليها ، عملاً بقول الرسول : « اطلبوا العلم ولو في الصين » .

وكان من نتيجة هذه النهضة أن تصدى الفكر للعقائد . واخرق نطاق حرمةها . مما أثار حفيظة المتزمطين المشددين . والتاريخ حافل بثورات نقمتهم

على الفلاسفة المتحرّرين من قيود النقل . والتزمّت في الدين أدلّ على الضعف منه على القوّة .

ولا يزال حكماء الإسلام يقولون بتحكيم العقل . فالإمام الشيخ محمد عبده يقول : « إذا تعارض العقل والنقل : أخذ بما دلّ عليه العقل . . . » أى أنّ العقل يقدّم على ظاهر الشرع عند التعارض . ويؤخّنه بالدليل العقليّ القطعيّ . واشترط شيخ الإسلام ابن تيمية التماس الصحة في المنقول ، بقوله : « إن صحيح المنقول في الإسلام موافق دائماً لصريح المعقول » .

ليس أدلّ من هذا على أنّ الصحيح في كلّ مذهب : يشترك فيه طلاب الحقيقة . وإنّهم انتموا إلى سواء من المذاهب . وأنّ العقل الإنسانيّ المستمدّ من العقل الكلّيّ هو الوسيلة الوحيدة لاختراق كلّ حاجز إليه .

مذاهب العقل

١ - ذاك العصر :

حفل القرن العاشر للميلاد بتفسيخ الإمبراطورية الإسلامية . وانقسامها إلى دول ودويلات متعددة . ففي الأندلس الأمويون الذين دامت دولتهم ٧٨٠ سنة . وفي شمالي أفريقيا الفاطميون بعد الأغالبة والأدارسة . وفي حلب الحمدانيون . وفي مصر الأنشيديين . وفي العراق الديلم . وفي عُمان والبحرين واليهامة وديار البصرة ، القرامطة . وفي بلاد فارس والأهواز : البويهيون . وفي خراسان بنو سامان . وفي الهند وأفغانستان : آل سبكتكين . وفي طبرستان ، العلويون . هكذا تفرق العرب في ذلك العصر كتفرقهم اليوم . حين طلع عليهم ، كالـيوم . فجر النهضة من مصر ... وكانت خصوماتهم السياسية ، ومنازعاتهم الإقليمية . في أواخر ذلك العهد . تماماً كما هي الآن ، في بداية يقظتهم القومية ... حتى بلغوا من التراخي الخلق والتفكك القومي أن طلب أبو الفضائل الحمداني الحماية من الإمبراطور البيزنطي . والاستعانة به على دولة شقيقة ... ألا كتم يعيد التاريخ سيرته الأولى ، أو نفسه كما يقولون ! ...

من غمرة هذا الانحطاط السياسي برزت فرق سرية أحدثت فورة جدلية ، وخصومة روحية . بإقحام المنطق والعلم والفلسفة في شأن الدين . فكان النشاط الفكري والازدهار العلمي ، في ذلك العهد ، كما كان قديماً ، في تاريخ المدنية اليونانية ، نقىص ذلك الانحطاط . إذ أنه زخر بالفلاسفة وجاش بالعلماء والكتاب والشعراء . كالشريف الرضي . والمتنبي . والمعري . وابن العميد . وابن سينا . والفارابي . والبيروني . وغيرهم من الذين ، كفلاسفة اليونان . لا يزالون منارات للعقول ، ومصابيح للأفهام ، إلى يومنا هذا .

وكانت قد قامت قبل هؤلاء جميعاً ، وقبل الفرق السرية ، مدارس فكرية عديدة ؛ منذ فجر الإسلام . بتأثير المذاهب المسيحية التي انتشر

الإسلام في بلدانها بين شعوبها كالتساطيرة في العراق . واليعاقبة في مصر والحبشة . والسريريان في سوريا .

فاقتبست منها ومن الفلسفة اليونانية ما زود الفكر العربي بأروع ذخائر الإنتاج . وأغنى خزائنه بأنفس الكنوز والأعلاق .
من هذه المدارس الفكرية سنأتى . فيما يلى . على ذكر أقربها من مذهب « التوحيد » . وألصقها به : وأعمقها أثراً فيه .

٢ - إخوان الصفاء :

في ذلك الازدهار العلمى والخصب الفكرى : ظهرت جماعة إخوان الصفاء . فإن معز الدولة البويهى لما استولى على بغداد ، فى ذلك الحين . أظهر أمرهم وعطف عليهم :- وكان شيعياً . وكانوا . لأنهم من الشيعة الباطنية ، يخشون سطوة السنّة فى نزاعها مع الشيعة . فى عهده عرفت رسائلهم الاثنان والخمسون التى كانوا يتداولونها سرّاً .

ويرجح أن أبا العلاء المعرى كان منهم . وكان يجتمع معهم سرّاً يوم الجمعة الذى كان العرب يسمونه « عروبة »^(١) . يقول من قصيدة له :

تهيج أشواقى عروبة أنّها إليك زوتنى عن حضورٍ بمجمعٍ
كما يذكر إخوان الصفاء ومودّتهم وصلته بهم بقوله :

وإذا أضاعنى الخطوب فلن أرى لوداد إخوان الصفاء مضيعا

وفى شعر أبى العلاء وفلسفته كثير مما يدلّ على أنه . إن لم يكن منهم ، فهو على الأقل متأثر بفلسفتهم . ومردّد للكثير من أفكارهم .

(١) وكانت أسماء أيام الأسبرج عند العرب العرباء : أول . أهون . جبار . دبار . مؤنس . عروبة . شيار .
جمعها الشاعر بهذين البيتين :

أزبل أن أعيش وإن يوى لأول أو لأهون أو جبار
أو التالى دبار أو فيوى لمؤنس أو عروبة أو شيار

يقول آغا خان . زعيم الإسماعيلية ، في كتابه « نور مبین » ، إن إخوان الصفاء لا ذوا بالكتبان وحرصوا على إخفاء رسائلهم ، صوناً لسلامتهم ، وإن هم زعموا أنهم فعلوا ذلك « صيانة لمواهب الله عز وجل » . والدروز يقولون إن « إخوان الصفاء » إخوانهم . وقد تكون كتب الحكمة الستة إتماماً لرسائلهم . ولا شك أن هنالك رسائل أخرى من مجموعة رسائلهم ليست في حوزتهم .

من هذه الرسائل ، يقول تاريخ سوريا ، للمطران الدبس ، « كتاب المشاهد والأسرار التوحيدية » . وهو أربعة مجلدات ، نُقِلَ ثلاثة منها من سورية إلى إفريقيا سنة ١٧٠٠ م . والرابع كان في مكتبة الرهبان الدونكيكين . ثم انتقل إلى مكتبة الأمة في باريس . ويقول البروفسور مكدونلد ، في كتابه « اللاهوت الإسلامى » : « حينما استولى المغول على قلعة "ألموت" وجدوها غنية برسائل إخوان الصفاء » . مما يدل على الصلة بين تعاليم إخوان الصفاء والإسماعيلية والدروز .

إن أوجه الشبه بينها عديدة كما سرى فيما بعد . منها تنظيم جماعتهم . وإيفاد دعائهم . والوصايا التي يزود بها الدعاة من حيث قبول المستجيبين ، والعطف عليهم ، والرفق بهم ، والرجوع إلى من هم أعلى رتبة منهم في الأمور الصعبة ، والتدرج في الاطلاع على الأسرار . وكتابها . وألفاظهم الرمزية . وتقديس الأديان كلها ، وتفسير آياتها باطنياً . وعقيدة التقمص . وفلسفة القدر والتخير . والحدود . وخلق الوجود . والعقاب والثواب . مما سيتضح في فصول آتية .

وأما أوجه الاختلاف ، كتسفيه الدروز للتنجيم والطوابع والتشاؤم والتفاؤل ، وإنكارهم لوجود الشياطين والملائكة ، فإنها نتيجة لتطور المذهب وتصفيته مع التقدم الفكرى ونمو المعرفة .

٣ - المعتزلة :

كان « المعتزلة » جماعات من الفلاسفة يحملون ، « كالدروز » ، اسماً لم يختاروه لأنفسهم . بل أطلق عليهم . لأنّ واصل بن عطاء ، المؤسس الأوّل ، كما يُروى ، « اعتزل » مجلس رئيسه الحسن البصرى ، لاختلاف فى الرأى . وكانوا كالدروز يطلقون على أنفسهم اسم الموحدين أو « أهل العدل والتوحيد » . ومثلهم يقولون بأنّ للإنسان قدراً . أى قدرة على أفعاله . لأنّ الله عادل فى محاسبة المارء عما له الخيرة فى عمله لاعلى ما هو مجبر به ، مكره عليه ، مما سيأتى بيانه فى فصل خاص . ويدافعون عن وحدانية الله فى نفي الصفات القديمة والحالات المنسوبة إليه تعالى . بالأدلة العقلية . واللجوء إلى التأويل والحجاز فى تفسير ظاهر الأقوال والآيات الدينية .

فكانت تسميتهم بالقدرية خطأ . وهو اسم فرقة سابقة ، أولى أن يطلق على القائلين بأنّ القدر كلّهُ من الله . لا على المعتزلة ، الذين كالدروز يبرأون من القدرية ، وحجتهم فى ذلك أنّ عدل الله لا يسمح بأن يقدّر على العباد أعمالاً لا يبدّ لهم فيها ، ثم يحاسبهم عليها ، إذا كان هو خالقها وفارضها جبراً .

وقد تشعبت نظرياتهم فيما هو قدّر الله على العباد ، وقدّر العباد على أفعالهم بالإرادة الممنوحة لهم . أو ما يسميه الدروز « التخيير » . والله المعين على الصواب . أى أنّ للإنسان جانباً مسؤولاً من « الإرادة » العليا التى هى من أسماء « العقل الكائى » الذى يتصل به العقل الإنسانى — وهو جزء منه — فى تطوّر الوجود . فبمقدار إرادته وحرية اختياره فى أفعاله ، يُثاب أو يجازى .

وقد نسبت إليهم ، خطأ ، أمورٌ هم منها براء . كما نُسب إلى مذهب التوحيد القول بالمقدّر أو الجبر الذى لا يزال يؤمن به من عامة الدروز من لم يفهم فلسفة المذهب على حقيقتها . وهو انحدار بالدين لم يسلم منه شعب من الشعوب . وكُفّر بالرسالات الإلهية التى جاء بها الرسل يدعون إلى الخير وينهون

عن الشر . ويعدون بالثواب ويوعدون بالعقاب . والرسالات نفسها جاءت من العقل الكلى إلى العقل الجزئى . بلغته ومنطقه . يقدّم فيها العقل على النقل . أى الفكر على مؤدّاه ، فى محاولة التوحيد بينهما .

والدروز كإخوان الصفاء يوافقون المعتزلة فى أكثر الأصول ، فإنّهم مثلهم يحاولون التوفيق بين الدين الإسلامى والفلسفة اليونانية . ويعظّمون أولئك الفلاسفة ، ويرفعون بعضهم إلى أعلى مراتب القداسة . وينفون الجهة أو المكان عن الله . وينكرون الشفاعات والمعجزات . ويضعون فى باب الحجاز ما « ينقل » عن ذلك جميعاً فى نصوص الأديان . ويميلون إلى التقشّف والزهد . ويرفضون عطايا الأمراء وهبات الحكام ، يعدّونها من المال الحرام . ويمتنعون عن الوقوف ببابهم . ابتسم الدهر لهم فى عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى كما ابتسم للمعتزلة فى عهد المأمون . ثمّ نكبوا مثلهم . فكانت نكبة المعتزلة عبرة ونذيراً لإخوان الصفاء ولئن جاء بعدهم من جماعات التفكير الحرّ . فلاذوا بالكتمان والاستتار ، اتقاء الاضطهاد والعدوان . واستشرت الرجعية . وانحصرت أنوار الفكر فى زوايا المجالس ، أجيالاً متعاقبة حرّم الناس فيها تفهّم كنهه ليمانهم ، ونعمة المتعة فى سبر أغوارها ، والخوض فى غمار أسرارها . واختفت منابر المناقشة والمجادلة . فقلّ المشتغلون بها ، العاكفون عليها ، حتّى تحجّرت العقائد ، وفقدت روعة فتنيتها ، وحيوية روحانيّتها .

٤ - الصوفية :

ظهر النزوع إلى التمسك والتقشّف فى القرن الثانى للهجرة ، التماساً للتقرّب من الله بالصلوات والتأملات . وتحوّل إلى تصوّف بالتعبّد . وتصفية النفس من الميول الطبيعية . وإخماد الشهوات . والاتصال بالحقيقة . والإعراض عن الأعرّاض . بالرضى والتسليم . والانتقاد إلى الحق . والزهد فى متاع الدنيا . والتبسّحر فى أسرار الوجود . والتجريد . والتأمل . فشاركهم فى أكثر ذلك ، فيما بعد ، جماعة الموحّدين الذين لا يزال أشياخهم حتّى اليوم يتزملون بالعباءات

الصوفية . ويمارسون مناسك المتصوفة . وتعبّداتها إلى حد بعيد . ما عدا « ترك الاختيار » . لأنهم بحسب مذهبهم يخيّرون فيما يحاسبون عليه . لا يجبرون . وكان الحاكم بأمر الله زاهداً متقشفاً . يكره اللهو ، بل يحرمه كما حرّم الخمرة ، ونهى عن الزينة والزهو . ولبس الصوف سبع سنوات . كالتصوفة تماماً . واتبعه وحداً حذوه في التحريم والزهد والتعفف ولبس الصوف أشياخ المؤمنين به إلى يومنا هذا . ما عدا التبخر والتأمل والتجريد .

على أن الصوفية ، بعدما اجتازت مرحلة التطور في اختباراتها الروحية ، وممارسة التعبّدات على طريقتها الخاصة ، أصابها الجمود ، وعراها التقليد ، ككل طريقة دينية ملائمة لروح العصر الذي أوجدتها حاجته ، ثم نضبت موارد وجه لها ، أو وهن إقبالها عليه . ولا سيما أن ذلك الإقبال الروحي لم يتخذ سبيل العقل والعلم إلا عند القليلة من أعلام الصوفية . فإن الصوفية في روحانياتها التعبّدية لم تفتح للتنقيب العلمى والتقصّى الفكرى ، والبحث ، والنقد ، والمناقشة . بهذا الانفتاح افرق عنها مذهب الموحّدين ، في إبانته ، قبل انغلاقه والتشدّد في كتمانها .

ولكنّها ، بتأثير النصرانية والبوذية والنزعة الفلسفية اليونانية . كانت قد أحاطت نفسها بجهاز يشرف عليه رؤساء وأشياخ ، فانتشرت في القرن الرابع للهجرة ، خصوصاً بين الفرق الباطنية ، ومنها الدروز الموحّدون الذين اقتبسوا منها أموراً كثيرة ، إلا التعبّدات التي يشربها الغلو . وزادوا بأن أمعنوا في الكشف عن المعاني الباطنية . وسلطوا العقل على خفايا النقل . وهم يعظمون أعلام الصوفية ، كالخلّاج والجنيد ، لصلاحتهم وإخلاصهم وفضائلهم .

عن مثل هذه الفضائل التي يتحلى بها الدروز يقول « بورون » : « لأنهم يحرمون الكذب ، والخمرة . والتدخين ، وشهادة الزور ، والاغتياث والنسيمة . ويؤمّرون بالوداعة واجتناب الجشع والحسد . . . » . ويقول بطرس البستاني : « إنهم يمارسون ضبط النفس والعفة . وصدق اللسان . ويتجنّبون السفه والبذاءة . ويرفضون المال الحرام » . وبمثل ذلك شهد لهم نوفل نوفل ، وقوللى ، واللورد

دفرين ، وتشرشل ؛ كما شهد لهم من معاصريهم مارون عبود . وحنا أبى راشد . وبولس سلامة . ويوسف يزبك . وسعيد فرنسيس ، وتغنى بفروسيتهم الشاعر القروى رشيد سليم الخورى . وأمير الشعراء أحمد شوقى . وكثيرون غيرهم ممن يضيق المجال عن ذكرهم .

أمّا مما يفترى عليهم به فأكتفى بنبذة عن الحمرة التى اشتهروا بتحريمها وبالامتناع عنها حتى الآنفة من مجالسة شاربها :

أشاع العباسيون ، عن الفاطميين ، لعداوتهم لهم ، أنهم أباحوا شرب الخمر . حتى إن القرماني ، نقلا عن ابن الجزرى بكتابه « تاريخ الدول » (صفحة ١٩٢) يروى - زوراً - أن الحاكم أرسل أحد دعاة إلى سوريا يبيع لهم شرب الحمرة إلى يومنا هذا . . . فى حين أن المقرئ والمؤرخين المعاصرين للحاكم : يقولون فى معرض الشكوى منه ، لا فى الدفاع عنه ، إنه منع حتى بيع الزبيب ، خشية أن يصنع منه النبيذ . ولم يسمح للشارب بأكثر من أربعة أرتال من العنب ، فى وقت واحد ، لاسبب نفسه .

٥ - الموحدون :

فى ذلك العصر . كما وصفناه ، طلعت رسائل الموحدين بتعاليمها الباطنية ، متأثرة بالمدارس الفكرية التى سبقتها ، مستعينة بالسلطة التى آزرتها واستفادت من دعايتها . وهى فى الواقع والأصل ثورة وجدانية على سطحية التعبد الدينى ومناسكه و « طقوسه » . ورغبة عقلية ملحة بالتوغل فى عالم الروح . بثت فى العبادة حرارة الوجد والتهاوت . ولكن أعوزتها قوة التجمع ، وفاتها استهواء الجماهير .

فى تفاسيرها الباطنية لنصوص الدين ما لا قبيل للمؤمن العادى باستيعابه . « فإن لله سبعين ألف حجاب من نور » كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام الغزالي فى « مشكاة الأنوار » . ولأنه تعالى « وسع كرسيه السموات والأرض » [الآية ٢٥٥ السورة ٢] أو كما يقول « وَدَّزُورُوثُ » : مسكنه أنوار الشمس

الغاربة ، والمحيط الرحيب ، والهواء الفسيح ، والسماء الزرقاء ، وعقل الإنسان .
أى أنه إذا كان لا بدّ من إيمان ، فإيمانٌ مع العقل .

مثل هذه الباطنية غزت المسيحية منذ أواخر قرنها الخامس حتى شيعة «الراجفين» (كويكرز) الحاضرة ، التى تشبه الدروز من ناحية الممارسة الدينية بالنسبة إلى «الكنيسة» ونظامها . فإنّ التصوّف الباطنى ، فى نُشْدانه الحقيقة وتوحيه مواجهتهما ، أو الوقوف ببابها ، بحثّ فى المتصوّف الباطنى شعوراً بالمعرفة ، واختباراً روحياً عميقاً ، جعله يتمرد على السلطات الدينية وتقاليدها ويعيد النظر فى تلاميذها . ولا يستسلم إلى تمسكها بمجودها . حتى اتهم أصحابه بالكفر والزندقة . وكان السبب فيما يرويه التاريخ من اضطرابات وفورات . فالسكون ليس هدف الدين وغايته القصوى . والبشرية فى مراحلها الروحية لا بد لها من مواجهة العقبات والمشقات .

قام فى «الدروز» الموحدين نظام مذهبى ، مؤلف من الدعاة والمأذنين والمكاسرين ، يشمل مناطق مقسّمة تقسيمًا دقيقًا . ولكن سرعان ما فقد هذا النظام قوّته الاجتماعية ، فى مواجهة الضغط السياسى ، والتنكّر السنّى لكلّ شذوذ ، حتى انزوى وقبع فى المجالس السريّة ، متّهما مدحوراً ، بعد إغلاق بابهِ وتصرُّمِ أسبابه .

وكان قد سهّل قيام المذهب فقدان سلطة دينية منظمّة فى الإسلام ، مثل «الكنيسة» فى النصرانية . فانطلق الفكر ، لا يردّه عقل ، يرود المرامى والمغازى فى غوامض النصوص . ويستخرج المعانى من مكامن الألفاظ والرموز . وكلّ ما أحدثه من اضطراب وبلبله ، يبرّره ما قام فى الأذهان من تساؤل ، قرّع باب المجهول ، وألّحف فى طلب الجواب . وحرك شهوة الاستطلاع فى عقول الناس . فأخصب باللقاح حرث المعرفة .

لا يسع أنصار الحق إلّا أن يحترموا كلّ ساع فى طلب المعرفة ، ولو كان جاحداً . فإنّ المعرفة ، لا الإيمان الغاشم ، هدف الرسائل السماوية . ومذهب الموحدين ، بهذا السعى ، خاض فى كشف المعمّيات الدينيّة . والغاية من

الحياة الإنسانية . ومصيرها . وتعريف الروح . وتقديسها ، ونفسي أسطورة الموت . وصورة النعيم والجحيم .

يقول بهاء الدين ، في إحدى رسالاته : إن الأرواح المطهّرة ، بإيمانها بواحدية الله ، وتحليلها بالفضائل البرهانية ، تنشُد الكمال الذي فيه سعادتها ؛ وهذا هو الدين الصحيح ، والغرض من وجود الإنسان . فإن الحقيقة ، في النهاية روحية ، والمادة لانهاية لها في ذاتها . بهذا يعنى أن المادة ليس لها وحدة نوعية . وليس في جوهرها رجس ولا نجاسة . بل إنها قدسية الأصل في الوجود . لذلك كان أبرز ما في هذا المذهب عقيدة التقمّص ، أو تعاقب الأرواح في هياكلها المادية . وورورها فيها للاهتجان والتطهير ، في أدوار متواصلة من التطور ، حتى النهاية ، أو الحالة التي تُدعى فيها لتؤدّي حساباً عن أعمالها وسيرتها في عالمها المادى الذى هو من صنعها . . .

وأبرز ما في أتباعه أنهم ، إلى جانب تحكيم العقل في العقائد ، يمارسون مناجاةً وابتهالات يتقربون بها إلى الله . فيجذبون بين النظريات الفكرية ومجرى الحياة . ممّا يُعَمِّدُ السببَ والمسرّة في واقعهم الخلقى الغدّ ، وتاريخهم الحافل بمفاسد هذه الجماعة البشرية الصغيرة .

وفوق ذلك . تنطوى عقيدتهم على عنصر إنسانى فريد بين العقائد . هو إيمانهم بأنّ الإنسان . في نقاته . يؤلّد . في بيت الصديق أو العدو . الغريب أو القريب . على السواء . وأنّ الجنس البشرى مختلط بالتقمّص . يتمكّر اختلاطه وامتزاج عناصره . وشعوبه . وطوائفه . في كلّ جيل ، دون تفريق أو تمييز . أو كما تقول إحدى رسائلهم : « والضد قد يظهر من بيت الولي » . ما أقرب هذه النظرية . في شذوئها ، إلى نظرية « وحدة الوجود » ؛ وهى : إن الحياة . والفكر . والقوّة . والمادّة . جميعاً انبعثت من أصل واحد شامل ؛ لا تدركه العقول . ولا يحيط به الوصف . وأنّ كلّ خير ، أو شر . وفضل أو نقص . وصواب أو خطأ . كلّ ذلك لا يُردّد إلى صاحبه وحده . ولا يعود عليه بمفرده . بل يُنسوّك . أو ينال من الجنس البشرى برمتيه .

هكذا يحبك هذا المذهب ، فى نَسَج واحد ، مصير البشرية جمعاء ، مع استثناء التمييز الفردى ، فى خلاصٍ يختلفُ فيه عن أهل الكلام الذين يربطون الروح بالجسم الواحد ، بدايةً ونهايةً ، وانتظاراً فردياً ليوم الدينونة .

ويختلف عنهم بإصراره على أن الكمال المنشود تحاوله الروح ، على هذه الأرض ، بسلسلة من التطور الذائق ، من حياة إلى أخرى ، حتى وصولها إلى ذلك « اليوم » . . . ويسأل ، مستنكراً : أيعقلُ الزعمُ أن هذا التطور ، بما يُلجِم من القوى والمبادئ ، ويستلزم من الجهود والتعاليم ، يمكن إنجازهُ فى مدى حياة واحدة ؟ ! حتى إذا قيل ، جمداً لا ، إن ذلك ممكن ، بعد الموت ، فى عالم روحى ، يتساءل إذا كان العدل الإلهى يستقبل ، بالتساوى ، روحاً تَهَيَّأَ لها الرشد والهدى ، وأخرى لم تُسهَّلْ إلى مثلها من الوقت

إن ظهور الإنسان المتكرر ، بأشخاصه المختلفة وأدواره المتواصلة ، فى هذا الوجود ، يسفر عن تجمع اختباره الروحية ، كما تقول كتب المذهب . ويُقصد منه تحقيق الغرض الذى من أجله وُجد النوعُ الإنسانى ، بما يشبه ناموس الوراثة الذى يشترك النوع فيه . لا أن يكون الإنسان بمفرده قطعةً جاهزة الصُنْع فى النهاية . بل جزءاً من جهاز التآزج والتواصل وتشابج الأرحام والشائج . وهو ، لعمري ، أدعى إلى الإخاء الإنسانى من كل دين .

التقمص

تعود عقيدة التقمص أو التناسخ إلى قدماء المصريين . وتعاليم فيثاغوروس . وبوذا ، وغيرهم ممن طوى هممه على كشف الغطاء عن أسرار الروح ومصيرها الخفى . فإنّ أفلاطون حاول تعليل نمو المعرفة في الأجيال البشرية ، وطاقة استيعابها للحقائق . فافترض مرور الأرواح في حياة سابقة . ولعله بنى افتراضه على تدرّج الروح في معارج الأجيال . وتطور المواهب والوعي . ونمو الطاقة العقلية . لا على تجميع واختزان المعلومات . والفرق بين الأمرين أشبه بالفرق بين تدريب العدائين على الركض . وبين اجتياز المسافة التي يطوونها . حجته ، على كل حال ، قائمة على العمل المشترك بين العقل والروح ، وانتقال أثره من جيل إلى جيل .

« نيتشه » عالج هذا السرّ المحيّر بنظرية « التكرار الخالد » المنبثقة من اعتقاده « أن كل ما يحدث الآن ، حدث مراراً لا عدّها لها من قبل . وسيتكرر حدوثه مراراً لا عدّها لها في المستقبل ، دون تغيير أو تبديل » . فزاد الدروز على ذلك ، في عقيدة التقمص ، أن التغيير الروحي مستمر ، متّجه نحو مشكل أعلى ، حتى انتهاء الأجيال — إذا انتهت ...

لست أعمد إلى الإحاطة بالموضوع ، وتبيان الفوارق بين « النسخ » و « المُنسخ » و « الفسخ » و « الرسخ » . عند غير الدروز . ولكني سأوضح عقيدة التقمص . كما أفهمها :

جاء في الرسالة ٦٧ أن البشر . وهم عالم المواد الأعظم — سواء في « العالم العلوى » . أعني الفلك وما فيه من المدبّرات والنيرات والاستقصات » ، أم في « العالم السفلى » . « لم يتناقصوا ولم يتزايدوا ، من حيث الأرواح التي هي معدودة من أول الأديار . تظهر بظهورات مختلفات الصور على مقدار اكتسابها من خير وشر » .

فالأرواح أو النفوس خُلِقَتْ بعد « العقل الكائى » . من نوره الروحانى . محدودة معدودة عند الله . لا تزيد ولا تنقص على مدى الأجيال . والأجساد لا تقوم من القبور بعد موتها وتعود كما كانت قبل موتها ، كما تبشر بعض العقائد الأخرى . فإنّ الأرواح تنتقل إلى أجساد جديدة بالولادة . أرواح الموحدين إلى موحدين . وأرواح المشركين إلى مشركين . مارة في أدوار التصفية والتطهير والتكامل . أو الفساد والشرّ والعذاب .

فى ذلك تقول الرسالة ٥٧ : « مَنْ سَلَكَ الْجَدَّ بِمَسَالِكَ الدَّعَاةِ الْأَطْهَارِ .. ثُمَّ عَزَّزَ عَنْهُ ، وَرَجَعَ إِلَى الْبَاطِلِ ، مِنْ غَيْرِ إِكْرَاهٍ وَلَا إِجْبَارٍ ، فَهُوَ مِمَّنْ كَانَ فِي الْقِدَامِ مِنْ شِيعَةِ إِبْلِيسَ ، وَقَدْ رَجَعَ إِلَى الْعَنْصَرِ الْحَبِيثِ » ... وتستشهد رسالة أخرى بالآية الكريمة ١٥٨ من سورة الأنعام : « لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ » .

وتمضى الرسالة ٣٧ فى تعريف الروح أو النفس ، فتقول : فى الإنسان نفس بهيمية . من شأنها الشهوات الطبيعية . يغلب عليها الجهل . ولما كان الإنسان مركباً من جوهر يفعل ولا يفعل ، وجوهر يفعل وينفعل ، وعرض يفعل وليس بفاعل إلا بآلته : ... فإنه محتاج إلى محرك يستخرج معرفة الجوهر من العرض .

فأمّا الجوهر الفاعل الذى لا يفعل ، فهو العقل المتحد بالنفس الشريفة . أى غير النفس الحيوانية ، الحسية البهيمية ، الموجودة فى الإنسان والحيوان على السواء .

وأما الجوهر الذى يفعل وينفعل ، فهو النفس الشريفة ، لأنها عاقلة ، عالمة ، حيّة ، شافقة ، قابلة للصور ، فهى تقبل الجهل كما تقبل العقل . وأما العرض ، الذى يفعل وليس بفاعل ، فهو الجسم الذى تستخدمه الجوارح (الأعضاء أو أجزاء الجسم) فى إرادتها وهويّاتها .

ولما كانت النفس الشريفة تقبل الجهل كما تقبل العقل ، فأيهما غلب عليها مالت معه . وإنّ جوهرها مكمّن فيها كما تكمن النار فى الزناد . ولو

مكث الزناد طول الدهر بلا قادح : ولا حجر يحركه ، لما ظَهَرَ من الزناد نار . كذلك النفس ؛ إذا عدت التذكار بالعلوم الروحانية : الذى هو غذاؤها ، مالت إلى الجهل ، لغلبة النفس الحسية البهيمية . أما إذا لم تعدم رياضة الحكمة ، وغذاء العلوم الإلهية : وكانت قابلة لما يتحد بها من آثار العقل . تجوهرت وصفت ولحقت بعالمها . كالزناد الذى إذا حرّكه القادح استخرج منه الشرار . فتَبدّى بها النار .

والعلم أثر من العقل . يتحد بالانفس الشريفة . فتقبله وتزكو وتنمو حتى تصبح صورة روحانية . كمثل النطفة تتزايد حتى تكمل صورة الجنين ...

« فنقول إن الحجر معنى العقل ، والزناد معنى النفس . وظهور النار من الزناد بالقادح ... كذلك ظهور الصور الروحانية من النفس بمادة العقل وتأيد البارئ سبحانه ... جعلكم الله أيها المرحدون . ممن اقتبسوا من النار المباركة ... لا ممن أوقدوا ناراً فلما أضاءت حولهم ، ذهب الله بنورهم وزاد ضلالهم وظلامهم » .

مؤدّى هذا التعريف : أن الإنسان مؤلّف من جسد . ونفس بالاصطلاح العادى . وروح . وإن كانت لفظاً « النفس » و « الروح » تُستعملان فى مواضع كثيرة بمعنى واحد إذا كان المقصود بالنفس النفس « الشريفة » . مع وجوب التمييز بينها وبين النفس التى تؤدى معنى الحياة . وأما « النفس » و « العقل » ، روحانياً ، فهما منزلتان من منازل الحدود العليا حين تستعملان استعمال أسماء الأعلام .

ونستدل أن الروح قد تنحط إلى المستوى الحيوانى وغرائزه البهيمية . أو تسهر باتحادها بالعقل « الكلى » إلى مستوى الأبرار . ولكنها — كما تقول الرسالة ٣٩ — « إذا بعدت من الرحمة ، وعدمت الغذاء من نور الحكمة ، رجعت ضالةً بعد هداها » .

هكذا نرى فى نصوص عديدة من « الحكمة » أن الجزء والمثوبة للنفس هما بمقدار ما تكتسب من المعرفة والعلوم (الروحية) فى أدوار انتقالها من قميص

إلى قميص ، أى من جسد إلى جسد بالثقله ، « بزيادة درجتها فى العلوم ، وارتفاعها من درجة إلى درجة حتى تبلغ حد الكامسة » . بل حد الإمامة . أما « العقوبة بسبب الجرائر ، والنيات الخبيثة ، والخلف ، والعناد » — كما تقول الرسالة ٤٧ — فهى فى « تصان المنازل (الدرجات) وتغيير الصور يوم الجزاء والمعاد » .

ينجو من هذه العقوبة — تقول الرسالة ٥٢ — من كان « ساهماً مطيعاً . ناظراً بعقله إلى السالك الأعلى . متعالياً بصفاء جوهره عن دنس الأعراض . متميزاً بنفسه الشفافة من أسقام الشكوك والأمراض الداخلة على نفوس عصاة البشر ، الناقلة لها فى أخس الأجسام جزاء لنكبتها عن الحق » .

هنا لا بُد من الاستطراد ، دفعاً لما قد يخامر الأذهان بسبب غموض العبارة الأخيرة وأمثالها . ولا غرور ، فقد وهم أحد أعلام المطلعين أن فيها معنى المسخ . فأقول :

إن العقيدة تقول بنقله الأرواح إلى أجساد بشرية . أما هذه العبارة ، ومثلها عبارة الرسالة ٥٤ فى توبيخ قتلته السيد وإنذارهم بتغيير « صورهم بالمسوخية فى القردة والخنازير كما غيرواهم صورة الحبر الحكيم » ، فإنها من باب المجاز للتحقير . والبرهان على المجاز عبارة : « تغيير صورة الحبر الحواري » الواردة فيها ، التى تشير إلى قتله وانتقاله إلى « صورة » بشرية أخرى . ولقطة « الصورة » تعنى « الجسم » . هكذا ترد فى لغة الرسائل كالرسالة ٩٠ التى تقول عن أحدهم « إنه » عدا على بعض الإخوان فنقل صورته « ... تعنى أنه قتله فانقل إلى صورة بشرية أخرى ... أى تخصص جسداً جديداً . كأن تقول : « أنا الروح . وهذا الجسد لى الآن » . أى ثوبى فى هذه الحياة .

إن المجاز كثير فى المذهب الباطنى كقول الرسالة ١٦ : « وأما الخنزير فهو الضد الروحاني . . . والذئب أئمة الضلالة » . يعنون بالخنزير الكافر . وبالقرود الشرير . وبالمرتدين عبدة العجل . « والنفوس العاصية معكوسة فى الانتقال » . [الرسالة ٦٣] . وكتب « الحكمة » ملأى بالبراهين التى تثبت أن النقلة البشرية

لا تكون إلا إلى أجساد بشرية . حافلة بنى نظرية المسخ . كما سأوضح بما يلي .

نفي المسخ :

المسخ فى اللغة تحويل الصورة إلى صورة أقبح منها . فىقال مسخه الله قرداً . وهذا ، دينياً ، حيثما ورد ذكره ، مجازى ، معنوى ، المقصود منه التحقير . هكذا ورد فى الرسالة ٢٧ التى تخاطب « خمار بن جيش » وتسميه « إبليس الأبلّاس . معدن الشرك والوسواس . النغل اللعين . المسيح الخزيّن ، خمار . . . » فى حين أن خمار « المسوخ » هكذا ، كان حياً ، بصورة بشرية ، ممسوخاً معنوياً . . .

وفى الرسالة ٤٢ : « قد مُسِّخْتُمْ وأنتم لا تعلمون . فأنتم فى غمرة ساهون » يخاطب أحياء فى أجساد بشرية . كما يفعل فى « مثّل ضربه بعض الحكماء » [الرسالة ٤٣] قاصداً بالمسوخ الوحوش ، إذ يقول : « أشباه المسوخ والذئاب . لهم أمثال فى التشبيه . يعرفهم الفطن النبىء . فبعضهم كالثعابين . وبعضهم كالأساود والأراقم » .

تامّل المجاز فى الرسالة ٥٦ : « يا أصحاب الأجسام الحالية من الأرواح . . . والهياكل القائمة كظلال الأشباح . . . عكست نفوسكم ، وتقهقرت فى درج المسوخية ، بالانخفاض والانفسال » . هذه إذن مسوخية معنوية روحية . وفى الرسالة ٦١ : « . . . قد اختلطت بطبائع الخائب طبائعكم فى المسوخية . وتمازجت أرواحكم بروحه فى جحد الألوهية » .

وفى الرسالة ٦٣ : « . . . عكست نفوسهم الآراء الخبيثة وأخلدتهم فى المسوخية » .

وفى الرسالة ٨١ : « اللواتى خرجن عن حقائق الديانات ، قد مُسِّخْنَ وهنّ غافلات »

وفى رسائل عديدة ، غير التى ذكرت ، يرد ذكر المسخ ، فى معرض الذمّ

والتوبيخ . وهو تعبير مجازي ، كما قلنا . وليس حسياً على الإطلاق . فإن عقيدة التوحيد تنكر المسخ في التناسخ إنكاراً صريحاً . وتفيه نفيّاً قاطعاً . حتى إنها استبدلت بلفظة التناسخ « التقمص » ، خشية أن يفهم من التناسخ عقاب الأرواح الخاطئة بتناسخها أى مسخها في أجساد حيوانات ، فالمسخ من أقسام التناسخ . وهو ، و « الرسخ » - أى انتقال الأرواح إلى نبات - و « الفسخ » - انتقالها إلى جماد - لا موضع ولا موضوع لها جميعاً في هذه العقيدة . أكبر برهان على ما أقول ، رسالة كاملة في نفي المسخ في التناسخ . إلا بالمعنى المجازي المتضمن الإشارة إلى تشويه الروح الخاطئة . وفي تنفيده وانتقاد القائلين به وتكفيرهم .

هذه الرسالة سُمِّيَ باسمها كتاب « الرد » المتضمن ٢٦ رسالة . من باب تسمية الكل باسم البعض . إنها الرسالة ١٥ أكتفى بإيراد ما يلي منها وفاءً بالقصد : « من عبد إبليس اعتقد التناسخ (باعتبار التناسخ يتضمن المسخ) .. أما قوله (أى قول الكاتب موضوع الرد) بأن أرواح النواصب (هم أعداء الإمام على) والأضداد ترجع في الكلاب والقردة والخنازير ، وبعضها في الطير ، فقد كذب ، وأتى بالبهتان العظيم . إذ لا يدخل في المقول ولا في عدل الله بأن يعصيه رجل عاقل فيعاقبه في صورة كلب أو خنزير لا يعقل ما كان عليه في الصورة البشرية ، ولا يعرف ما جرى . فأين تكون الحكمة والعدل في ذلك . وإنما تكون الحكمة في عذاب رجل يفهم ويعرف العذاب ، ليكون مأدبةً له وسبباً لتوبته » .

« وإنما يكون العذاب الواقع بالإنسان ، نُقْلَتَه من درجة عالية إلى درجة دونها في الدين . وفي قلة معيشته وعمى قلبه في دينه ودنياه ، كذلك نُقْلَتَه من قميص إلى قميص على هذا الترتيب .

« وكذلك الجزاء في الثواب ما دام في قميصه . فهو زيادة درجته في العلوم ، وارتفاعه من درجة إلى درجة في اللهوات (= انتقال النفوس) إلى أن يبلغ إلى حد الإمامة .

« هذه هي أرواح الباطنية وثوابها . وما تقدّم أرواح الأضداد وعقابها .
 « فن اعتقد هذا كان عالمًا بتوحيد مولانا جلّ ذكره . ومن اعتقد التناسخ
 خسر الدنيا والآخرة . ذلك هو الحسران المبين » .
 كما أن رسالة « النور » من كتاب « اليونان » تسفّه القول بالحلول وهو
 مذهب المنصور بن الحلاج التيمى . وتقول إنّ نشتكين الدرّزى « اعتقد
 الحلول » ، مما كان من الأسباب التي أدّت إلى تكفيره وقلته .

التقمّص والمصير :

الجسد أو الجسم البشرى : فى عقيدة التوحيد ولغتها المجازية ، ثوب للانفس
 أو الروح . قميص ، فى اصطلاح المذهب ، تتقمّصه الروح عند الولادة .
 وتنتقل منه بالموت فوراً إلى جسد مولود . دون تمييز جنسى ، أو عنصري ،
 أو مكافئ . وتظل بعد كل موت تخلع به الثوب البالى وتلبس ثوباً جديداً ،
 إلى نهاية الأجيال .

هذه الروح أو « النفس الشريفة » ، والعقل ، تتحدان فى الجسد بالانفس
 الطبيعية أو الحيويّة — أى الروح والعقل والحياة — فتتألف بها الشخصية
 الإنسانية . وعدد الأرواح لا يزيد ولا ينقص . . . على هذا الأساس قامت
 نظرية التقمّص . وبهذه النظرية بُنى العقاب والثواب ، على قاعدة العدل
 الإلهى فى محاسبة الأرواح بعد مرورها فى الدهر الطويل . لا فى مدى حياة
 واحدة . بخيرها وشرّها . وقصرها أو طولها . بحيث يمنحها الدهر الطويل
 فُرصَ الاكتساب والتطوّر . والامتحان والتبدّل . لكى تحاسب حساباً عادلاً
 على مجموع ما كتبت . فلا تكون الأرواح كيانات مبهمّة ، غير واعية ،
 لا علاقة لها بالاختبار والامتحان : يُتاح لبعضها مثلاً مدى حياة واحدة طويلة
 تنطوى على جميع احتمالات التوبة أو العصيان . ثم تُعتبر مُساويةً لأرواح
 لم ترَ نور الحياة مع أجسادها سوى أيام أو سنين معدودة حرمت فيها فرص
 الاختبار الواعى والإرادة التى تختار ! !

وتظهر الشخصيات الإنسانية ظهوراً متواصلاً ، بصور أو حالات مختلفة حسب استحقاقها . في أدوار قضت الحكمة الإلهية أن تكون مختبِراً للأرواح . وامتحاناً لاتحادها بالعقل . وسبيلاً طويلاً إلى العقاب والثواب . في آخر الأدوار ، يوم الحساب .

إنها في أدوار انتقالها تكتسب من المعرفة والعلوم أروحية ما ينقلها من درجة إلى درجة ، في مراقى التكامل ، حتى تبلغ درجة الإمامة ، إذا كانت مؤهلة لها . وهذا منتهى الرفعة الروحية المتصلة بالإمامة ، أعلى مراتب الدين ، في آخر أدوار التمهيد المقصود منه بلوغ الكمال الإنساني ، بالتطور في سلسلة متواصلة من حلقات الزمان .

بانتظار هذه الغاية من التجارب والامتحانات والاختبارات تكون الأرواح على قدر اتصالها بالحقائق ، قد بلغت منازل الأنوار . لتظهر في مجد انتصارها الأخير ، مشتركة في مواكب الخلود . في هذا الانطلاق ، واتحادها بالعقل الكلي ، تكون قد بلغت الأعراف . كما تقول الرسالة ٦٦ :

« . . . فقد اقترب للناس الحساب . . . وآن لتَنُورِ الأعرافُ أن يفور . . . »
وقرب حصاد ما زرعه الأيدي . . . لِيَتَمَيَّزَ نفوسُ المُحِقِّينَ . وتتعالى في درج الكمال ، مغتبطة بالمعارف اليقينية . وتسعد بالضوء المشرق عليها بعد تغشيتها بوحشة الظلم الطبيعية . وتحلى بجواهر الفضائل ، وتتحد بالأنوار القدسية . وتكون مُفَتَّنَةً في تمام الجواهر وتربيتها بالمهين العقلية . . . وفوزها بمملكة المعالم الإلهية . فهي باقية مدى الدهور والأبد . قد صفا لها السّدق اليقيني بصحة المذهب والمعتقد .

« هنالك تنورُ بُدورِ التّام . وتتعالى بالضياء والإشراق . وترتفع نفوس أهل العدل ، ملتحفة بقالب البقاء والأمن من الفساد والانحلال . قد خلصت لَطْهَرُ عنصرها ، وقوة صفاتها ، من دنس الشكوك والأعراض . وتهذبت بتحقيق قهرها للصّور العقلية . . . »

« وتشعشت بحق الظهور معاهد الأعراف أصحاب اليمين... واتحدت ،
بعد مفارقتها للمواد الطبيعية ، بشرف وجود معقولات الروحانيين . وأرسمت
بمقر قدسهم مراسم العقل الفعال ... »

« عند ذلك تتلأأ أنواره (العقل) في الآفاق والأقطار ، لفيضان التأييد .
وتعندقُ سماءُ حكمته بهوامي التنزيه والتجريد . وتثبت بها أرض الحقائق
(نفوس الموحدين) ثمار التقديس والتسليم والتوحيد ... ويصبح بالبعث الجزاءُ
لنفوس الأنام . ويقوم الحق والعدل بقيام الإمام . ويخسر المرتدون والشاكون ...
وتُسأل المؤودة عما حملت من الأثقال والأوزار ... »
« هنالك تطالع نفوس أهل الحقائق بصفاتها على الخفيات . وتبلغ بقوتها
المتجلية لصور الحق نهاية النهايات » ... »

منزلة الاعراف هذه ورد ذكرها في مواضع كثيرة من الحكمة . ووردت في
الآية ٤٤ - ٤٦ السورة ٧ من القرآن الكريم : « ونادى أصحاب الجنة أصحاب
النار ... وبينهما حجاب . وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم » ...
ففسر بعضهم رجال الأعراف (الأعلى) بأنهم ملائكة أو أنبياء على أعرافهم
أى مراتبهم الروحية العالية العارفة بخفايا النفوس ، يستقبلون النفوس أو
الأرواح الصالحة . وقال آخرون إنهم جماعة بين الجنة والنار يرجون رحمة
ربهم . وأقرب تفسير للتوحيد أنهم « الحدود » يميزون بين الأرواح في
حسابها ، لعقابها أو ثوابها .

عنها تقول الرسالة ٦٨ : إنها الأرواح « الواردة إلى الملأ الرفيع عند استكمالها
لعلو الدرجات . الثابتة بقدس الطهارة ومحلّ الأندوار ... عند تمام الإدارة
(العقل) وكمال الأقمار ، الحاضرة لثواب المحققين ، الشاهدة لعقاب الكافرين » .
وإن « قائم الحق غاب بعد إيجاب الحجّة على العوالم في ملكوت باريه . إلى
أجل يتدبّر بمعالم حكمته وينتهي ... إقامة للقسط والحق والعدل ، في يوم
المعاد والقضاء الفصل » .

التقمُّص والمعاد :

في «الحكمة» رسالة تبحث في مهبط الروح أو النفس ومعادها، تسترجع أفراد فصل خاص لما تضمنته من مناقشة تلتى ضوءاً على ما أبهيم علينا من غوامض هذه النظرية . إنها الرسالة ٧٠ . نجتزئ منها بما تتضمنه من آراء تدل على ما للفلسفة من أثر في العقيدة . ولا سيما الفلسفة اليونانية . فإن الموحدين يعظمون فلاسفة اليونان كما فعل المعتزلة . بل يرفعونهم إلى منزلة الأنبياء . ويجعلون تعاليمهم تكملةً لمذهبهم الإسلامي في التفسير . تقول الرسالة :

« زعموا أن النفس أهبطت إلى هذا العالم طلياً ؛ لا عائم عندها لزلة سبقت منها في عالمها الذي ذكروه ... »

« فأقول : إن كانت أهبطت لتزكى وتطهر ، فالعدل يوجب أن يكون الموضع الذي تزكى فيه وتطهر ، أشرف من الموضع الذي نزل فيه وتنجس . وإن كانت أهبطت مجازاةً لزلتها ، وعقوبةً لما سبق منها ، لتكون في موضع يشاكل زلتها ، فلا معنى للعبادة ؛ لأنها إنما أهبطت للعذاب والعقوبة ، لتكون في الموضع الذي يشاكل دنسها ، ويليق بزلتها ونجسها . وإن موضع النجس ليس بمحلّ العبادة . ولا يجب أن يكون فيه من يستحق منزلة الإفادة . إن النفس لا تخرج من هذا العالم ، إذا كانت أهبطت إليه لزلة سبقت منها في عالمها كما يقولون . إذ كل نفس زلت في هذا العالم ، لا ترجع إلى عالمها الذي ذكروه . لأنها من جهة الزلة أهبطت . وما يعتري أحد في هذا العالم من الزلة والخطأ سوى المعصومين . »

فإذا كان ذلك كذلك فهي لا تخرج منه .

وإنهم أقروا بأنها في هذا العالم زكت وطهرت ، وبعد جهلها علمت ، صح قولنا إن الموضع الذي تزكى فيه النفس وتطهر ، أولى بمجاورتها من الموضع الذي نزل فيه وتنجس .

« وأنا أقول ما يشهد به العقل ، إنه لا ينساغ في عقل أحد من أنصف

نفسه ، أن يحكم لنفسه أنها لم تنزل ولم تخطئ في هذا العالم . إذ كان يعلم ويحكم أنها علمت بعد جهلها .
 « وإذا كان ذلك كذلك ، فتمدح أن النفس في هذا العالم لا تخرج منه .
 ومعادها إليه . »

« وبطل قول المقصرين (المقصرين عن فلسفة فيثاغوروس وأفلاطون وأرسطوطاليس) إن النفس عالمًا غير هذا تتحد بهويته ، وترجع إليه لسمو رفعة مرتبته ، مجاورةً للبارى تعالى ، وإلحاداً فيه ، وحصرًا له ، وتحديداً لباهر قدرته ، وإضافةً لعلوه ، وتنزُّهه إلى الأثير . إعظاماً لبُعد المسافة بنظر العين . . . ولم يتفرقوا بين رفعة العالم الجرماني (المادّي) وبين شرف جوهرية عالم النفس المتعالى عن كدر العالم الجرماني » .

وعما ذكره الفارابي — في الفصل الخامس من كتابه «إلياء المدينة الفاضلة» —
 عن مفارقة الأنفس للأجسام ، تقول الرسالة :
 إن كان الشيخ الفاضل عني بانفراد النفس ، في ذاتها ، وآرائها . وأفعالها ، وهياتها . وأن الأعراض ترتفع عنها في ذاتها وجوهرياتها ، وهي موجودة في الجسم كالمالكة له والحاكمة عليه . أو يكون عني بمفارقتها للأجسام أنها فارقت الأفعال الطبيعية التي من شأنها ألا تظهر إلا من جسم . أو يكون سلب عنها لأفعال الجسميّة مع إثباته لوجودها . أو يكون عني بقوله صعوبة تفهّم نسبتها إلى المفارقة وهي متحدة بالجسمانيات — أي مفارقتها بجوهرها ونزاهة أفعالها العلية عن الهوليات — إذا كان ذلك كذلك ، فقد زاد على الحكماء المتقدمين . وأغرق في طلب معلوم الدين .

وإن كان عني أنها تفارق الجسم ، المالكة له ، والحاكمة عليه ، التي لا نعرف أفعالها إلا منه . فقد أبطل رئيس المدينة الفاضلة هذا على ترتيبه الذي رتبّه وبنى قوله عليه . إن الرئيس إذا بلغ كماله الأخير ، فارق هذا الجسم وهذا العالم . فعلى ظاهر قوله هذا ، لم يبق في العالم كامل يُفيض الكمال كما أفاضه هذا الرئيس المفارق للجسم والعالم . فقد انقطعت إفاضة الكمال ، لأنه

جعله صاحب المعسورة. وإذا انقطعت إفاضة الكمال فقد صار العالم سدى . ولا يبلغ فيه أحدٌ إلى الكمال الأخير . هذا على قوله وقول المتقدمين . ووجب في العدل القول إن الرئيس قد ظلم أهل مدينته وجار عليهم .
أما الرسالة ٧٠ فتقول في ذلك :

« إن أمكن أن تبقى نفس هذا الرئيس ، في هذا العالم ، بعد كمالها ، مدةً . . . فممكن أن تبقى مدةً أكثر . . . وإذا أمكن بقاؤها في هذا العالم مدةً بعد كمالها ، فالعدل يوجب ، والحق يشهد . أن نسبتها إلى الكمال الأخير وهي غرقة في الأمزجة الطبيعية ، أكمل وأشرف من نسبتها إلى الكمال بعد المفارقة . . . »

أقر المتقدمون أن النفس تبلغ كمالها الأخير وهي متحدة بالطبيعات . فأوجب العدل والعقل في قولهم إن كمالها ، وهي متحدة بالجسم ، الذي بلغت فيه كمالها الأخير ، أشرف وألطف من كمالها بمفارقة الجسمانيات . لأنها تكون ، وهي متحدة بالجسم ، مالكة للعالمين . فتحكم بكمالها وقوة ذاتها على الطبيعات ، فمن ادعى غير ذلك ، فليثبت لها فعلاً مجرداً بعد المفارقة . . .
هكذا تُجسِّع الفلسفةُ الإيمان . فيرتفع بالعقائد من مجامعها إلى أجواء العقل . وهكذا نرى عقيدة التوحيد تقدس أرباب الفلسفة . لأنها تقدس العقل . ونذكر كيف كان « لوثر » لتعصبه شديد التنكر للفلسفة ، يشتم « أرسطو » ، ويسميه « الخنزير . الدنس . الكذاب » !!

أما الفارابي الذي تناقشه هذه الرسالة فإنه أكبر الفلاسفة المسلمين . شرح كتب « أرسطو » في سبعين سِفْراً . وسُمِّيَ مهذب العقول الثاني ، بعد أرسطو . وكان أستاذ ابن سينا . سُمِّيَ « الشيخ الفاضل » إشارة إلى كتابه « يلزاء المدينة الفاضلة » . وقد كان معاصراً للخليفة الفاطمي « القائم بأمر الله » الجدل الأعلى « للحاكم بأمر الله » الذي كان كاتب الرسالة ٧٠ من دُعائه .
هذه الرسالة تنكر القول بأن للنفس عالماً غير هذا العالم « تتحد

بهويته ، وترجع إليه ، ... مجاورةً للبارى تعالى ، وحَصْرًا له . . . إعظامًا
لبُعد المسافة بنظر العين !!! »

ثم تقول عن القائلين بذلك إنهم « لم يفرّقوا بين رفعة العالم الجيرمانى الجماد ،
وبين شرف جوهرية عالم النفس ، المطلع على المعقولات ، المتعالى عن كدر
العالم الجيرمانى ونعته وصفته . . . »

ولما كان مذهب الموحدّين يقدّس أرسطوطاليس ، فقد أخذوا عنه فلسفة
التقدّص وتعريف الروح أو النفس كما يسمّونها . وأيّده كثيرون من الفلاسفة
ومنهم الفيلسوف القرطبي الأندلسى ابن رشد فى قوله بأنّ هذه النفس جوهر
مجرد عن المادّة ، متعلّق بالجسم ، مدبّر له باتحاده به ، وأنّ انطباع المحسوسات
يهيئُ النفس للكليات والمعقولات الهابطة عليها من « العقل الأوّل » المجرد
عن المادّة . وللنفس ملكة تستكمل بها النمو بالمعرفة والاكتساب والتطور ،
بما يسمّى « العقل المستفاد » أو المكتسب . فإذا أعرضت النفس عن العقل
زال تمثّلها للمعرفة . لأنها لا تعقل شيئاً إلا باتصالها بالعقل الفعّال . أى
بواسطته . لا باستحالتها إليه . ولا انقائه فيه .

فإذا استحال الجسم بالموت ، عن أن يكون آلةً لها ، فإنها تبقى بعد
مفارقتها البدن : على استقلالها ، لا تعدم شخصيتها . ويجوز - والدروز
يقولون بالوجوب لا بالجواز فحسب - أن تتعلّق بجسم آخر . تسعد معه بالعلم .
أو تشقى بالجهل . وهى خالدة على كلّ حال .

هذا هو التقدّص على حاله التى سبق شرحها . ويزيد الدروز على ذلك
أن هذا الانتقال ، والاتصال مع « العقل الكلّى » بالعلم والمعرفة والإحاطة
بالحقيقة ، إنّما هو التطوّر المنشود نحو الكمال الروحى الذى هو السعادة
الأبدية ، غاية الغايات .

وينعتون بالبداية الساذجة القول برجوع الروح بعد مفارقة الجسم إلى
مشرقها العام ، أو مصدرها الأوّل ، أو الوجود الأوّل ، بدون غاية سوى
تلقى ماترجوه من جزاء على رصيد بضع سنوات تقضيها على سطح الغبراء ،

تعود بعدها إلى «الجلوس في حزن إبراهيم» !! هائلة إلى الأبد... أو تُقذَف إلى أتون فؤار بالسعير يذيقها آلام الجسد الذي فارقت . حسباً نهياً لها في الحياة الدنيا . . .

خرافة النطق :

بعض الغلاة ، ممن ليسوا من علماء المذهب ، يؤخذون بما يتواتر بين السذج من العامة . عما يسمونه «النطق» . أى أن الروح . على زعمهم ، حين تنتقل من جسد إلى جسد ، تحمل معها أحياناً معلومات عن «الدور» أو الجيل الذي كانت فيه . «فننطق» ؛ أى تحدث عنه بما تعيه الذاكرة . كأنما الذاكرة جهازاً روحياً ، لا عقلياً مكتسب ... ويروون قصصاً و «وقائع» عن ذلك ؛ محيرةً ، مدهشة . يكاد لا يرق إليها الشك . وقد شهدت بعضها بنفسى . وما زلت بها حتى تبين لى زيفها . مع الاعتراف بأن أولئك «الناطقين» كانوا يبدون مخلصين صادقين بما يعتقدون أنه وقع لهم فى «حياتهم الماضية» . فما السر فى ذلك ؟

إننى لم أجد كلمة واحدة ، فى جميع كتب «الحكمة» . تثبت هذا الزعم . بل وجدت ما ينفيه نفيّاً قاطعاً ، لا يترك مجالاً للتأويل . مما يستوجب تعليل هذه الظاهرة . التى كثر تداول أخبارها ؛ تعليلاً علمياً . حتى لا يجثم هذا المجهول فى ظلمة العقول .

ولعل المصدقين وجدوا ، أو أرادوا ، من ورائه ، إثبات نظرية التقمص ، من أقرب السبل والعيان . ذلك شأن من أرادوا إثبات النبوءات أو القداسات ، إلى يرمنا هذا . فقصّوا على الناس أقاصيص العجائب المنسوبة إلى الأولياء والقديسين . ورددتها الصحف ، إرواءً لغليل المتعطشين للخروج من قيود الواقع الجاسى إلى سرحة الخيال فى رياض المجهول . وتحدثاً للموت بتحويله إلى مرحلة تجديد للوجود .

من الجور وسم الخرافة بالانفاق والتضليل . أو بالإيمان الباطل . نالحق

والباطل كثيراً ما يتداخلان . وأذكى العقول قد تحار أحياناً بينهما . بل ربما كان الباطل نتيجة تعليل صحيح من ناحية المنطق . إلا أنه مبنى على خبر متواتر غير أكيد . أو على إشاعة سارية لا يليق بالنبهات التعويل عليها .

في القرون الخالية شاع « علم » التنجيم . وانتحلته علماء في ذلك الزمان سفهتهم رسالة « الرد » في « الحكمة » . واعتبرته من فنون الشرّك ، بالرغم من روايات بعض الأديان لظواهرات فلكية اتخذتها دلالات وبشائر ، لأحداث ومصائر

كما شاعت ، حتى الآن ، القنقنة ، أو كشف المياه الجوفية بالقضيب . والتبصير . وقراءة الكف . واليوم نواجه هذيان أطفال ، يقدّون له بالإيحاء والتلقين البريء ، مسارب إلى العقول الحصبة الصغيرة . يغرسون فيها أفكاراً . وينقلون إليها أقوالاً تصبح باللقاح الذهني كأنها منهم . وتكبر معهم راسخة في عقولهم الباطن . وهم لا يدركون مصدرها الصحيح . فيعيشون بحياة مزدوجة في عالم من الوهم والارتباك ، أفراداً أفذاذاً حائرين ؛ ضحايا وسط غاشم مظلم بمعزل عن نور اليقين .

هذه الظاهرة لا يشبتها العلم ، وإن كان « انتقال الأفكار » من عناصر الإيحاء فيها . وربما كانت تسميتها « النطق » مستخرجة من لفظة « النفس الناطقة » التي تعني شيئاً مختلفاً يقصد به التمييز بينها وبين النفس « الحيوانية » والنفس « الكَلْبِيَّة » . و « الناطق » نعت لواحد من النطقاء الخمسة ، واضعبي الشرائع الدينية . ففي علم النفس أثبت البحث أن « الوسيط » في انتقال الأفكار يردّ ما لا علم له به في الحالات العادية . ينقلها من عقول أناس آخرين . أما الزعم أن الطفل ينطق بمعلومات حياة سابقة ، فليس له مستند علمي على الإطلاق .

وحين تهيم نزعاتنا ، صوراً شاردة في أحلامنا ، لا تكون النفس منفصلة عن الذات البشرية — كما اعتقد بعضهم خطأ وبنوا على اعتقادهم نقلها للمعلومات . وإنما هي الأفكار الكامنة في تلافيف الدماغ ومطاويه الخفية تجد مَسْرَحاً لها ومنطلقاً في حالة من النوم طالما تعاورتها الأبحاث والظنون . ولا علاقة لمادة

الروح بهذه الحالة الفكرية ، واختباراتها الطارئة ، كما يقول الغزالي وكثيرون غيره من الفلاسفة ، وكما يبين مذهب الموحدين .

ولإني مثبت هنا ، بالنصوص من « الحكمة » ، صحة ما أقول . ففيها الحجة القاطعة لكل تأويل وتضليل . والنص هو المرجع الأصيل للموحدين إذا كانوا به مؤمنين . وبحكمه راضين مقتنعين :

١ - تقول الرسالة ٦٧ :

« فإن قال قائل ما لنا لا نعرف ما مضى من الأدوار ؟ قال له المحتج بالحقيقة [بهاء الدين] : لأنك لو ذكرت ، وعرفت ، لشاركت المبدع في غيب حيكته ، ولكان ذلك عجزاً من الباري . ولكان يفسد النظام . . .

« لأنك لو عرفت نفسك ، وما كنت عليه في الأدوار الماضية ، لعرفت غيرك ، واكنت أيضاً عارفاً بمبدعك الذي ردّك في الأشخاص . ولو عرفتَه لعرفت جميع العالم ولتساوى فيه العالم والجاهل . والناقص والفاضل » . .

٢ - وتقول الرسالة ٧٠ :

« إن النفس لا تنفرد بفعل وهي بائنة عن شخص . لأنه إذا انحلّ وصدر عنها . علمت الألفاظ . . . فأماً ما قاله الشيرازي من انفرداها في المنام ، وتذكر ما تشاهده وتخبر عنه من الأحلام ، فإنها إنما تحكي صورة المحسوسات . وتمتد هذه النفس مع المزاج . فتصوّر ما تكون قد شاهدته من المرات . . . فإذا كان المولود أعمى لا تقدر نفسه على الانفرد فتصوّر في المنام شيئاً سوى ما عيّدهتُه » .

٣ - وتقول الرسالة ٦٩ :

« لقد شهدتُ مناظرة بعض المؤمنين ، من أخذ دينه عن داع يدعى علم

الفلسفة . فإنه أسهب أن النفس تتحد بعملوااتها في معادها على الانفراد! وكان أنفس ما استشهد به . مما أخذه عن داعية المموة المحرف ، أو شيخه الحرف المزخرف !
أن النفس تنفرد بأفعالها ... فردّ عليه بعض الموحدين » ...

٤ - كتاب « النقط والدوائر » : - نُسخ منه في مكتبات ميونيخ .
وتوبينكه . ورتمبرغ - يقول في دحض خرافة « النطق » . وكأنّه يردّ على من قال بها ، فيما بعد . مؤكداً أن النفس « الناطقة » - أى غير الحسية الحيوانية التى هى الحياة - تحتاج إلى الجسم . ولا تستغنى عنه طرفة عين ، ولها في الجسم ممازجات ومشاركات وحواس تساعدنا .
« فما تقدر النفس الناطقة على الذّكر إلا بالقوة المذكّرة التى فى الجسم [وهى فيه] ...

« ولا تقدر على تخيّل الأشياء إلا بالقوة المحيّلّة التى فى الجسم ...
« ولا تقدر على التفكير إلا بالقوة المفكّرة التى بالجسم ...
« ولا تقدر على التمييز إلا بالقوة المميّزة التى فى الجسم ...
« ولا تقدر على الحفظ إلا بالقوة الحافظة التى فى الجسم الذى هى فيه ،
أيضاً ...

« القرب والبعد فى انتقالها سواء . إذا فارقت جسمًا اتصلت بسواه فوراً .
« والعقل الطبيعي خاصّ بالنفس الحيوانية [أى الحياة التى يتساوى فيها الإنسان والحيوان] . فإذا فسدت هذه النفس الحيوانية ، ارتفعت النفس « الناطقة » . وانتقلت إلى جسم جديد [فيه عقل طبيعي ونفس حيوانية تتحد بهما] . بزوالها عن هذا الجسم ورافقتها له تعدم الأفعال أى لا تقدر النفس تنطق بغير لسان . ولا تنظر بغير عين . ولا تسمع بغير أذن . ولا تفعل بغير آلة .
إلا الجسم الذى هى فيه . يؤيد ذلك ويؤكدده ، ويقوى برهانه ويشدّده ،
براهين عيانّة . وإيجاب حكمة ربّانية » .
ثمّ يزيد الكتاب مؤكداً :

« لما كانت النفس ، وهى حالةٌ فى الجسم ، تمازجُهُ فى الأفعال ، فلهذا إذا انتقلت منه احتجبت عليها جميع المعارف الجسائية التى اكتسبَتْها فيه
 « أما المعارف (أو المزاي) الروحانية فتكمن فيها بالقوة ... إلى انْ تنشأ فى الجسم الثانى . فتبرز منها (أى من القوة) الأعمال والمعارف بقدر ما تناله من التوفيق .

« وأما بعد التيامة فترتفع الحجبُ عن النفوس . فتُعْطَى قوَّةٌ تدرك بها جميع معارفها وأعمالها السابقة . من البداية حتى يوم القيامة . وتصبح الأزمنة الماضية عندها كأنها يوم واحد تتذكر فيه جميع ما علمت وعملت . و « يوضح لها بأى ذنب أُخِذت . فتُجازَى كلُّ نفسٍ بما اقترفته ، بعد التذكار والبيان . يوم يتذكَّر الإنسان ما سعى » .

« وأما فى دار الدنيا فليس للنفوس الناطقة إدراكٌ ما مضى من الزمان ...
 أوردتْ هذه النصوص ، دحضاً لكلِّ ادِّعاء ، وقطعاً لكلِّ « واقع » مزعوم ... ولم أدخل فى نقاش ، وإن توافرت له البراهين ، والسؤالات المخرجة للمدَّعين ؛ كقولنا : لماذا انحصرت هذه الظاهرة بالعامَّة الساذجة من الدروز دون الخاصَّة من نبهائهم ، ودون سائر شعوب الدنيا ؟ لماذا اقتصرَت على التواتر دون التقصى العلى ؟ لماذا كانت اللغة العربية ، دون سائر اللغات ، وسيلة النقل الفكرى ، ما دام انتقال الأرواح جارياً بين مختلف الشعوب ، وما دامت هذه العامة تعتقد أن أبناء مذهبهم منتشرون فى مختلف أقطار الدنيا . هذا إذا لم تنحصر النقطة فى كل فئة وإقليم !! لماذا لم يذكرها عالم أو مؤلف فى شؤون الدين منذ الأمير السيد حتى اليوم الحاضر ؟ ؟

ونستطيع أن نخشى فى سلسلة طويلة من السؤالات ، أولاً التزامنا جانب الجِدِّ فى الموضوع ، والدفاع عن مفهوم العقيدة عند الدروز . دون إقحام أى معتقِدٍ شخصى لى هو بينى وبين الله .

التخير

مذهب التوحيد ينفي القدرَ الحتميَّ أو الجبر ، بالرغم من أنه جرى على ألسُن العامة من أتباعه ، وشاع عنهم قولهم بالمقدَّر لجهلهم فلسفة المذهب ، وحرمانهم ممن يشرحها لهم . وما أقلَّ مَنْ يفهمها منهم ، وأبعدَه عن الناس في « خلواته »

كما أنَّ المذهب ينكر « القدرية » المطلقة . فهو ليس مع الأشعرية في أنَّ كلَّ شيءٍ مقدَّرٌ محتوم . ولا مع المعتزلة الذين نسبَت إليهم القدرية . إذ أنَّ المقدَّرَ الجبري يتعارض مع الإيمان بالعدل الإلهي ، وبالتخيير الذي يجعل المرءَ مسؤولاً عما يصدر عنه بإرادته واختياره ، عند واجهة العقاب أو الثواب في ميزان العدل والحساب . وعلى هذه العقيدة ، القائمة على التخير ، يستند الدروز أنفسهم ، كالمعتزلة ، « أهل العدل والتوحيد » .

على عقيدة التخير تقوم فلسفة التقصُّص . إذ يكون تكرار الروح في مدى أجيال البقاء البشري ، عروها في أدوار الاختبار والتجريب والامتحان لإعدادها لها وتطويراً ، قبل وصولها إلى الآخرة التي تنتهي إليها . فإن لم يكن المرءُ مخيراً فكيف يحاسب ، إذا كان تُسمَّ حساب . هذا هو منطق القدرية ، من حيث إن للمرءَ قدراً على أفعاله .

ولكنَّ عقيدة التخير ليست في الغلو كالقدرية . إنها تحدّد وتحصّر قدرَ المرءِ فيما يُسألُ عنه ، وفي نطاق ما لهُ يدٌ فيه . ولا تُخرجه على كل حال عن علم الله الأزلي . و « القدرية » تسمية ملتبسة ، أوّلَى أن تطلّق على الفائلين بالقدر الإلهي . أُطلِقت على المعتزلة خطأ . فقد كانت التسمية لفرقة سابقة ، أحقَّ بها مَنْ اعتقدوا أنَّ القدر من الله ، خيراً كان أم شراً . والمفارقة ظاهرة . بين الجبر و « القدرية » يعتقد الدروز أنَّ الله وهبنا العقل ومنحه القدرة على تكييف ما لا قبيلَ لنا بتغييره من أحكام القدر الإلهي . وعلى مقدار

تحكمه فيما خيّر فيه تكون التبعة والحساب :

ينفون الجبر . لأنّه حَمَلٌ على الفِعْل . وعلى ترك الفعل . لا مجال فيه لطاعة . ولا لعصيان . وإكراه لا يستوجب عقاباً ولا ثواباً . وحاشا الله أن يجبر العباد على معصية يعاقبون عليها . أو يثيبهم على حسنات لا يدلهم فيها .

وينفون التفويض المطلق . يستبدلون به « تقدير » الاستطاعة ، على الخير الذي تدعو إليه الرسالات السماوية . وعلى الشر الذي تمنى عنه . هذه الاستطاعة نفسها تقدير على العمل من الله . أمّا العمل ، في حد ذاته ، فهو من العبد ، والعبد مسؤول عنه .

يعبر عن ذلك ، الإمام الرازي ، مع أنه كان ينتصر لمذهب الجبر ، بقوله : « إن القول بأن العبد ليس له قدرة ولا اختيار ، جبر محض . والقول بأن العبد مستقل بأفعاله ، « قدر » محض . وهما مذمومان . والعدل أن يقال : إن العبد يفعل الفعل . ولكن بواسطة قدرة وداعية يخلقها الله فيه » .

ويحتجون بالآية (١٥ السورة ١٧) : « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه وما كُنّا معذّبين حتى نبعث رسولاً » . أى أن الله يبعث رسولاً للهداية . وهذا دليل على أن « لا وجوب قبل الشرع » كما يقول البيضاوى في تفسيره لآيات القرآن الكريم . ومثله يفسرون الآية ١٦ (السورة نفسها) : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمَرْنَا مُتَرَفِّعِينَ . . . » بقولهم إن الأمر بالطاعة . وعبارة الآية أشبهه بقولك « أمَرْتُهُ فعصاني » ؛ وهى صياغة اجتزاء .

هذا فيما يتعلق بالأفعال الإرادية التى يُسأل عنها الإنسان ، ويقدر أن يمتنع عنها أو يأتيناها . لأنّه مزوّد بالعقل يميز به الحق من الباطل ، والخير من الشر ، اختياراً هو « أهمُّ فارق بين الإنسانية وبين الحيوانية » كما قال أحد الفقهاء . وهو مخالف للجهنية القائلة بأن الإنسان مجبور في كل شيء دون استثناء .

وقد شاع القول بالجبر في التاريخ الإسلامى ، بعاملتى الفلسفة والسياسة . فلا غراض سياسية نُسبت فظائع كثيرة إلى القدر . به أراد الأمويون تبرير

اضطهادهم وتعذيبهم لأتباع عليّ . كما أريد الآن ، في الكنيسة البابوية ، تبرئة اليهود من ذنبهم بصلب المسيح ، بحجة أن الصلب قدّر من الله لخلاص البشر .

وكان شيوعه بين عامة الدروز ، مع عقيدة التقيّص ، مثارَ بسالتهم التاريخية ، وينبوعَ شجاعتهم التي لا تُقهر . فن نوادرهم الطريفة التي يتناقلونها ، أن أحدهم واجهَ عدوّه المهاجم الذي باغته بالرصاص ، وهو أعزل ، بقوله : « أطلقْ رصاصك . سأغيب عنك خمسة عشر عاماً ، أعود بعدها . ولن تُفُلت منّي ! » . . .

أمّا كيف يوضح المذهب نظريّته ، فذلك بفصل الأعمال ذاتها عن التكوين الخلقى في الإنسان ، بحيث يُفسح المجال للإرادة . أى أن بعض الأفعال يمكن تجنبها إذا تبين شرّها . وهي مهمة الرسالات الدينية والتعاليم الأخلاقية . وبعبارة أخرى ، إن الله خلق عناصر تكويننا وأتاح لنا استعمالها حسب استطاعتنا . وإن الدين وعلم الأخلاق ضروريان حيث يفسح الله للإنسان إرادة الاختيار في مجال الأقدار . وبذلك يبطل شمول الإجبار على أفعال تحاكمه عليها العدالة الإلهية .

يجمع القرآن الكريم ذلك بقوله [الآية ٢٨ و ٢٩ سورة التكوين] : « لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله . » . مُشيراً إلى حرية

الاختيار ، وحدودها . فلا إطلاق في الجبر ولا في التفويض ، « فن شاء فليؤْمِنْ . ومن شاء فليُكفّر » [الآية ٢٩ من سورة الكهف] . والمؤاخذه على الاختيار . فأى معنى للوجود إذا كانت حركة الأكوان كلها تسير على مخطط معلوم مرسوم لا تبدّل فيه ، ولم يكن في أحداث الغد « المكتوبة » ، المقدرة ، أى احتمال للتغيير ؟ أو إذا كان التاريخ مسجلاً مختماً قبيل ابتداءه ؟ وكيف تؤدّى الأديان رسالتها ؟

ويستشهدون بالآية [٣٥ السورة ٢١] : « . . . ونبلوكم بالشرّ والخير فتنةً . . . » وبالآية ٧ السورة ١٧ : « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم . وإن أسأتم

فلها . فإن للإنسان بدءاً في مجرى التاريخ . وفي الوراثة ، وفي التطور . له نصيب في كل ذلك ، مهما يكن ضئيلاً . وهو داخل في علم الله . تماماً كما يعرف الغارس نوع الثمر الذي ينتظره ، وإن تباين الحمل واختلفت الجودة .

فلننظر في كتب « الحكمة » كيف وردت نظرية التخيير :

جاء في الرسالة ٥٣ :

« أعيروني أفهامكم . . . إن الباري جلّت آلاؤه منزّه عن الظلم . . لم يهمل بريته . ولم يخلّهم في كل وقت وزمان من داع إلى كلمة التوحيد والهدى . . لتقوم الحجّة على جميع الأمم . . . »
 « إن أمر الباري عَرَضٌ وتخيير . ونهيه عظة وتحذير . لأنّه لو كان أمره حتماً واجباً ، ونهيه جزماً لازماً ، لم يشك في توحيدِهِ من البرية أحد . وتساوى الكافة في الدين والمعتمد . وعند تساويهم يبطل الثواب والعقاب . »

وفي الرسالة ٤٢ :

« . . . قد أوقفكم موقف التخيير . فهل في العدل سوى التخيير ؟ . . »
 فإن قال قائل : إنه أمر الباري لا يقدر الخلق على رده . [نقول له] إن كان قد أمر ونهى : ولم يقبل الأمر والنهي ، فهذا بعض الضعف أو كله . لقد جهلت أمر الباري ونهيه . إذ لو كان أمره حتماً ، ونهيه جبراً لم يشك فيه أحد . وأطاع الخلق بأسرهم . وإذا كان ذلك كذلك . سقط التفاضل . وعند سقوطه يبطل الثواب والعقاب . وتتخلل معاقب الديانات . وكان الخلق سدى . وحاشا الله . بل أمره تخيير . ونهيه تحذير . ليقوم العدل بالتخيير في الخليفة . ويصح الثواب والعقاب الموعودان في يوم القيامة ليحقّ عليكم العذاب بما أمرتم به وأغفلتموه . وتقوم الحجّة عليكم بما صدقتم عنه من الحق وبهتتموه . . .

يوم تجد كل نفس ما عملت من خير مُحْضَرًا ، وما عملت من سوء تودُّ أنْ بينها وبينه أمداً بعيداً . . . لتكون الحجة قائمة بالعدل الذى هو التخيير .

وفى الرسالة ٧٠ :

« . . . نقول عرفونا سبب تفاوت هذا العالم فى منازلهم وارتفاع درجاتهم . وفى شرف الأنفس ، وقبولها للعلم ، وضعيتها ، واختلاف آلاتهم . . . حاشا الله أن يجعل فى بعض قوة واستطاعة ، ويمنع البعض . . . فإن كان قد جاد على بعض بالمعونة ، وحرّم البعض ، فهذا هو الجبر . ولا ثواب للمَسْجُودِ عليه ، إذْ هو مُجْبَرٌ بما أفيضَ إليه وجُعِلَ عنده من قوة القبول . ولا عقاب على الذى بُخِلَ عليه . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . . . بل الجزاء بعد التخيير . وما تفضّل عليها من التمييز . . . ومجازاة الأنفس بما كسبت » . والآية ١٧ من سورة المؤمن تقول : « . . . تجزى كل نفس بما كسبت » .

وفى الرسالة ٧٤ :

« العقاب مرفوع عن المكثرة والمجبّر . . . فباختيار الناس للجحد والإنكار يعاقبون . وباختيار أهل الطاعة والصبر على المحن ، يثابون »

وفى الرسالة ٦٧ عن الغيبة التاركة لهم الخيرة فى العبادة :

« لو لم يرغب لكانت العبادة جبراً وقسراً . ولتساوى فى ذلك أهل الأرض . ولكن العالم مجبراً ، لا مثاباً . ولا معاقباً . لأنّ المحبّر لا يثاب ولا يعاقب » .

الثواب والعقاب

لكي نلِّمَ بمعنى العقاب والثواب عند الموحدين لا بد لنا من إلقاء النظر إلى تعريف إخوان الصفاء لهما . فإنهم يقولون إنَّ الحليم عالم الفساد حيث يقيم الأشرار في الإثم والعذاب . والنعم جنة الأرواح الطاهرة الخالية من الألم والندامة . ويسخرون من القائلين بنهاية العالم ، وقيامه من في القبور من الموتى . فالنهاية ليست دماراً . إنها حالة تنتقل إليها الروح . وحاشا لله أن ينتقم بتعذيب أجساد الخطاة في بحيرة من نيران تصيرها رماداً ، يُعاد أجساداً ، فرماداً . دواليك إلى نهاية الدهور ! أو أن وجود على الناجين بحور وولدان في فردوس حِسِّي كجَنَّات الأرض ! إلاَّ أن يُفسَّرَ ذلك الرمز روحانياً كما سنرى . ينكرون وجود جهنم نارِيَّة ، في مكان ما من الأفلاك السَّابِوَة ، بين عوالم في مجراتها أشبه بذرات الغيوم ، تبدو أرضنا بينها كشرارة تافهة من شعاع الأكوان . وينسبون إلى جهل الأقدمين تصوراتٍ مثلها عن بدء الخليفة ، والتكوين ، والنهاية في الجنة والحليم . وصور أرض مبسوطة مسطحة ، تضيء لخدمة الإنسان شمسها ، وتهديه في سرُّها نجومها .

والموحِّدون يصفون النعم والحليم بقولهم [الرسالة ٣٧] إن الجنة هي توحيد الخالق . والحليم هو الجهل والشر . وثمار الجنة المعرفة الحقيقية . ويتساءلون [الرسالة ٦٧] « من دون . . . » كيف نؤمن بمعرفة الله إذا كان مستويّاً على عرش فوق سموات سبع ، ونحن نجهل ما وراء أقرب جدار إلينا ؟

يكاد ينطق بلسانهم شاعر الإسلام ، الفيلسوف الباكستاني ، محمد إقبال إذ يقول : « إن جهنم ، في كلام القرآن ، نار الله الموقدة فوق القلوب . والجنة بهجة الانتصار على قوى الانحلال . فليس في الإسلام هلاك أبدى . وليست جهنم أتوناً دائماً السعير لعذاب إله منتقم . إن الحياة سَعْيٌ مستمرٌ نحو المعرفة . كلُّ ذاتٍ حرّة تُحدِّث فيه تطوّراً جديداً أو تفتح باباً للخلق والإبداع . »

و « حكمتهم » تقول [الرسالة ٦٩ . . .] :

« إن الثواب ، الذى هو أفضل العطاء وأجزله ، وأشرف الجزاء وأكمله ، هو إدراك المعلومات الإلهية ، واقتناء الفضائل البرهانية . وإنها السعادة القصوى . هذه السعادة هى الغرض فى وجود الإنسان . وهى كماله الذى لا يسبق لنفسه شوقاً إلى غيرها . ولا هى مما يُطلبُ لِيُنالَ بها سواها لأجل تمامها وكمالها ... هى الكمال الأخير للنفس . . . إن المعنى الواجب الوجود ، لذاته لا لغيره ، هو العقل . . . وما دون السعادة التى هى العقل ، إدراك المعلومات الإلهية . فهى الواجبة الوجود بالإضافة إلى العقل . . . فإن المعلومات الإلهية لا توجد معرفتها وتحصل إلا بالعقل

« وأما العذاب فهو النقلة من درجة روحية إلى درجة دونها . والثواب زيادة وارتفاع فى الدرجات . ذلك هو الثواب والعقاب .

وعن الجنة والنار تقول ، معرفّةٌ ناقدةٌ [الرسالة ٣٧] :

« توحيد الله هو النعيم السرمد . . . والكفر والجهل والغنى هو الجحيم . . . »
 « ولما كانت الجنة ، من حيث الحسن ، أشجاراً مثمرة ، ومياهها جارية ، تعلقت بها أوهامهم . . . ولوعرفوا الجنة (التوحيد) لسارعوا إليها ، وكانوا فيها مخدّنين ، وعلوموا أن الله ما أحالم على عدم . . . وأما أن الجنة عرضها السماوات والأرض ، فقد جهلوا معنى هذا القول . . . الجنة هى الدعوة الهادية . وثمارها العلوم الإلهية الحقيقية التى بها يتخلّصون من جهلهم . وأما معنى طولها فهو « العقل الكلى » . وعرض كل شئ غير منفصل عن طولها . كذلك « النفس » غير منفصلة عن العقل لقبول المادة الإلهية . فن تغذى وروى من علوم هذين الأصلين ، فقد أكل من ثمار الجنة وشرب من مائها ، بالحقيقة والمعرفة .

« وأما النار الكبرى فهى غلبة الشقوة وهوى النفس البهيمية الغالب عليها الجهل » .

يوم الدين :

يوم الحساب في هذا المذهب ليس يوم قيامة . إذ ليس فيه موت للأرواح ، ولا قيامة لها ، ولا بعث . فالأرواح لا تموت لتُبْعَثَ ، ولا تنام لتوقَّظَ . بل إنَّ يوم الحساب أو الدينونة نهايةُ مراحل الأرواح وتطوُّرها . إذ يبلغ التوحيد غايته من الانتصار على العقائد الشركية . وينتهي الانتقال والمرور في « الأقمصة » المادية ، لتتصل الأرواح الصالحة بالعقل الكلي ، على مقدار تكاملها . ولقد تبلغ من الطهر درجة الكمال .

ذلك هو الثواب يوم الحساب . وهو نهاية النهايات . أما العقاب فهو عذاب التقصير عن بلوغ تلك المراتب والغايات . وهما الجنة والنار في لغتهم الرمزية التي تتحدث عن « ظهور جند الله من الشرق » و « إطلاق سيف الحق » في عنق الباطل والشر في الخلق » . . .

إن ما ورد في بعض الرسائل عن اقتراب يوم الحساب كان « للتنبيه والتحذير » . و « البشارة والإيقاظ » . والوعد والوعيد . « يوم ترى المشركين مثل السكارى . . . وتجازى كل نفس بما كسبت » [الرسالة ١٧ - وقد كتبت سنة ١٤١٠ هـ . أي قبل الغيبة]

ومثله ما جاء في الرسالة ١٦ في السنة نفسها :

« أيام يسيرة . ثم يمهد الأرض حتى لا يبقى عليها منافق إلا وهو صريع بطشه . . . عندئذ تملأ الأرض عدلا وقسطاً » . ومثل هذا الإنذار والتحذير كثير بعد الغيبة ، لا تخلو منه رسالة حشاً للمؤمنين وتحذيراً من حساب يوم الدين . فالرسالة ٥٦ تقول :

« . . . إيقاظ لأهل الثقل النفسية ، الغافلة نفوسهم عن بعث المعاقبة العاصية ، اللاهية عن ثواب المطيعة ، المتلبدة عند العرض والحساب . . . بما احتجبته بعد عدل التخير في الأزمان الحالية » .

والرسالة ٦٠ تقول :

« هنالك ينكشف صبح الحق عن غيب الظلام . . ويتجلى العدل بظهور الهادي الإمام . القائم لجزاء الأرواح . . فاغتنبوا . . . قبل ختم الأفواه

وقطع الكلام، وطيّ الصحف وجفاف الأقلام .

وتصف الرسالة ٦١ ذلك اليوم بأنه :

« يومٌ تذهل فيه العقول والنفوس . . . ويكون مسيح الحق ، على ما كسبت كل نفس ، هو المجازي . »

ذلك كما تقول الرسالة ٦٣ :

« عندما تغلق الأبواب . في يوم العرض والحساب . فتجازي كل نفس بما اقترفته ، بعد التذكار والتبيان . . . »

وتصفه الرسالة ٦٢ بهذا الوصف الرمزي :

« هنالك تبطل معاذير الأنام . ويتجاني الحق والعدل من فلك الغمام . فتنبهوا يا أهل البصائر . . . عند ذلك يفور تنشور الحقائق بمكنون الأنوار . ويتصل ضياؤه بالآفاق والأقطار . . ألم ترتقبوا في الحكمة سبيل النجاة والهداية ؟ وبلغتم في التوحيد أوان الكشف حدود النهاية . . فأريقوا أسماعكم قبل ارتفاع الرحمة وغلق الأبواب . ونشر الصحف بجرائم الخلق وكشف الحجاب . . . هنالك تنصل الأنوار ببصائر الموحدين . وينهض بعسوب المؤمنين (العقل) . ويتعالى ضياؤه في الآفاق لكشف معلوم الدين . ويحلّ العقاب والحزنى بأهل التبديل والبدع . المتوجهين بالنزور والبهتان إلى عبادة العجل (الضد) ولأتباعه بالتبّع . . . فهم مُخَدَّلُونَ بما اجترحوه . . . حينئذ انتظروا صيحة البوار . وظهروا كنز الجدار [استعارة من

الآية ٨٢ من سورة الكهف] . إذا طلعت شمس الشموس . وتفتحت أبواب السماء لظهور المولى القدوس . فتذهل عند ذلك المراضع عن المرضعات . ويحتدم لهيب الصدور على ما فترط من الطاعات . وعنت الوجوه لأمر إله الأرض والسموات . فأين يُمناه بكم وقد أُسرجت للحق الضمير العتاق . وتقضى المضمار وحان السباق . فحينئذ انتظروا صيحة الفنا يا كدّر الأمم . ويا بقية عبدة العجل والصنم . . . لقد رفعت عنكم الأفلام . وتمّ التمام . وانقطع الكلام . وبلغت ما أودعته النذر الكرام . »

التوحيد

هذا المذهب التوحيدي قائمٌ على الإسلام ، يفسر آيات «التنزيل» تفسيراً باطنياً خاصاً ، يخرجُه عن باطن «التأويل» . ويجعله أحد المذاهب المتَّهمة بالغلو . فإنهُ يخالف أهل التنزيل ، في أنه ينظر نظرة خاصة في ما تنطوي عليه الألفاظ من معاني ودلالات روحانية . ويخالف أهل التأويل ، ويسميهم أهل الباطن ، في تفهيم رموزها الخفية . ويخصّ بهذه التسمية الإسماعيلية ، أقرب المذاهب إليه . وقد اشتهر في عصرنا الحاضر زعيمه الأكبر آغا خان .

في ذلك تقول الرسالة ٣٨ : « أهل الظاهر وأهل الباطن مؤمنون . وأهل قائم الزمان موحدون » . وتفسر الرسالة ٩ هذا بقولها : « معاشرَ الموحدين ! إن الإسلام باب الإيمان . والإيمان باب التوحيد » .

وتوضح الرسالة ٥٨ هذا الفرق بقولها : « ولما نظرنا إلى عقائد جميع من أشار إلى التوحيد ، وجدناهم طبقات ثلاثاً : — طبقة تطلبه بالرؤية . وطبقة تطالبه بالقول والمنطق والكلام اللفظي ، وطبقة توحيده بالعقل . . . فالتبقة الأولى أهل التنزيل . والثانية أهل التأويل . والثالثة أهل التوحيد ، يوحدونه بقلوبهم ، وينزهونه بأفكارهم الصحيحة وعقولهم » .

وتعرض الرسالة ٧١ لنظرية المعتزلة وغيرهم في خلق القرآن بقولها : « إن القرآن كلام الله . منزل . غير مخلوق ولا مجعول »

وفلسفة التوحيد هذه تلتقي في بعض الأمور مع المعتزلة وتخالفها ، كما رأينا ، في بعضها الآخر . فإنها تنفي عن الله الصفات والأسماء والحالات والجلهات والقيد والتشبيه . بمعنى أن الله هو الجمال ، لا الجميل . والقدرة ، لا التقدير . والحياة ، لا الحى . والعلم ، لا العليم . إلخ . فإن الجميل لا يستغنى عن الجمال . والقادر تلزم له القدرة . والحى تلزمه الحياة . والعالم

بالشيء لا غنى له عنه . كأنما هذه جميعاً أمور أو أجزاء منفصلة عنه متبعة له . أو كأنها غير ذاته .

تقصد بهذا وحدانية الله . لا تركيب . ولا تأليف . ولا انقسام . ولا أجزاء . فحيث تذكر الصفات أو الأسماء أو الحالات ، في الأديان ، تفسرها بأنها معاني ، تقريباً لها إلى الأذهان . وأما عبارات التعظيم والتجسيم والتشبيه وما إليها من صور مألوقة لخيالة البشر ، فهي مجازية رمزية . وكالمعتزلة تقول ما لا يدرك لا يُسمى ، وإن الأسماء وسيلة لمحاولة فهم إرادته ، لا لمعرفة جوهره . وهكذا جعلت للألفاظ مجزى خفياً باطنياً ينمى عنها ظاهراً مؤداها . إجلالاً للبارى « وإقراراً بالعجز عن إدراك كنهه » .

ولنقتبس من كتبها ما يعيننا على الإلمام الدقيق بهذه الفلسفة . فالرسالة ١٣ تقول :

« إن المولى سبحانه ، لا قديم ولا أزل . لأن القديم والأزل مخلوقان . وهو خالقهما ... حقيقة لاهوته لا تدرك بالأوهام والحواس . ولا تعرف بالرأى القياس ... ليس له مكان معروف ، فيكون محصوراً فيه ، وتخلو بقية الأمكنة منه . ولا يخلو منه مكان فيكون عاجز القدرة . ولا هو بأول ، فيحتاج إلى آخر . ولا بآخر فيكون له أول . ولا بظاهر ، فيحتاج إلى باطن . ولا بباطن فيكون مستتراً بظاهر .

« لا أقول بأن له نفساً ولا روحاً ، فيكون يشبه المخلوقين ، ويدخل تحت الزيادة والنقصان . ولا أقول إن له شخصاً . ولا جسمياً . ولا شبيهاً . ولا صورة . ولا جوهرًا . ولا عَرَضًا . لأن كل اسم منها لا بُدَّ له ، ضرورة ، من شبه ستة حدود — وهى فوق وتحت ويمين وشمال وخلف وقدام — وكل ما يقع عليه اسم الشبه يحتاج إلى شبهه . والبارى العلى سبحانه يُجْعَلُ عن الأعداد ...

« ولا أقول إنه شيء ، فيقع به الهلاك . ولا أقول إنه لا شيء ، فيكون معلوماً مفقوداً . ولا هو على شيء ، فيكون محمولاً عليه . ولا هو فى شيء ،

فيكون محاطاً به . ولا متعلق بشيء ، فيكون قد التجأ إليه .
 « ولا هو قائم . ولا جالس . ولا نائم . ولا ساهر . ولا له شبهة .
 ولا ذاهب . ولا جاي . ولا لطيف . ولا كثيف . ولا قوى . ولا ضعيف . . .
 » منزّه عن الصفات . والأجناس . واللغات . والأشياء كلها .
 « . . . من نوره أبداع الأشياء . . . وإلى عظمته وسلطانه يعود كل شيء .
 حقيقة لاهوتية لا تُدرك إلا صورةً وهمية . لا حقيقية مرئية . »
 هذا التوحيد يختلف عن التثليث في أن فكرة الأقانيم الثلاثة نشأت
 للتوفيق بين تأليه المسيح عليه السلام ، والإيمان بالإله الواحد بينما تعتبر فلسفة
 التوحيد أن تجلي الخالق نفسه ، بالشكل البشري ، أجدر بوحده تعالى ،
 وأولى بالاعتقاد بوحدانيته .

يمثل هذا الاعتقاد كانت « كلية هارفرد » في أواسط القرن الثامن عشر ،
 وهي تمثل أرقى أفكار ذلك العصر ، وبضعة عشر من رجال الإكليروس
 في « نيوا إنكلند » بأمريكا ، جميعاً يبشرون بالتوحيد .

ويمكننا القول ، بدون تجاوز ، إذن ، إن صلة المسيح بالله ، في ظهوره
 البشري ، لا تفسر إلا على أساس الاعتقاد بالتجسد . فإن التجسد
 والتثليث هما العقيدتان الملتصقتان ، اللتان لا انفكاك بينهما ، في الإيمان
 المسيحي . يختلف عنهما التوحيد ، بالاعتقاد أن « العقل الكلي » تقصص
 شخص المسيح . أي تجسد به .

التجلى :

أما التجلى فيقول فيه المذهب مناقشاً : إنه سبحانه أظهر لنا « حجابته »
 وقيامته رحمةً منه ورأفةً [الرسالة ١٣] « فإن قال قائل : كيف يجوز
 أن نسمع كلام الباري سبحانه من بشر ، أوزرى حقيقته في الصور ؟
 قلنا : أنتم تعتقدون أن الله عز وجل خاطب موسى من شجرة . . . ومن جبل . . .

وسمّيه كليم الله . . فإن كانت الشجرة "حجابة" ، فإن من يعقل ويفهم أحقُّ أن يكون حجاب الله مما لا يعقل ولا يفهم . وكيف يجوز للبارى سبحانه أن "يحتجب" في شجرة يخاطب كليمه منها ، ثم تحرق الشجرة ويتلاشى حجابها ؟ »

تقول الرسالة ٣٦ إنه « تقرّب إلينا بنا . وأنس عقولنا بصورنا . وظهر لنا بجميع أفعالنا . لتقبله أفهامنا . فلا نقول إن هذه الصورة المرئية هي هو ، فنجعله محصوراً محدوداً . بل نقول هو هي ، استتاراً وتقرّباً وتأنيساً ، بغير حدّ . ولا شبهه ، ولا مثل . أو كما نطق القرآن [الآية ٣٩ سورة النور] « كشراب بقیعة یحسبه الظمآن ماءً ، حتی إذا جاءه لم یجده شیئاً ، ووجد الله عنده . . . » كمثل الناظر في جوهر المرآة . فهو يرى نظير صورته بغیر لمسّ ولا إدراك كيفية ولا تحديد ماهية . . . »

« إن الله لو كان موجوداً على صورة مخالفة لبريته . أو ظهر لهم بمعنى يليق لعظمة ألوهيته . لم يشك فيه أحد من البرية ، وارتفع التفاوت والتفاضل ، وسقط الثواب والعقاب » [الرسالة ٦٩] . ولذلك « ظهر في حدّ الطفولة . ثم الكمال . ثم اعتلّ في ظاهر الأمر . لثلا يكون عاجزاً عن ذلك (عن الاعتلال) . فإنّ العجز (لإرادة العجز والقدرة عليه) من القادر قدرة » [الرسالة ٦٧] .

« كذلك مولانا جل ذكره ، بظاهر ناسوته عرفنا بلاهوته . ومن حيث نحن ومن صورنا خاطبنا . وإلا فما عرفناه ولا أدركناه . . . وسلمان لاهوته لا يدرك ولا يعرف » [الرسالة ٩] . واستطرداً تقول الرسالة : « إن الروح لا تدرك إلا بالجسم » . فما أقرب هذا القول إلى نظرية « باروخ سبينوزا » ومؤداهما : أن الوجود يتألف من الطاقة العقلية والطاقة المادية . أو المادة والوعى . وامتدادهما بالجسد والروح في الإنسان إنما هو حالة طارئة من حالات الله في الوجود .

ثم تقول : « فأى عدل يقتضى أن يكون فوق سبع سموات . على كرسى . فوق السماء السابعة وقد كلّفنا ، مع هذا ، عبادته ومعرفته ٩ . . . والمراء ليس في وسعه أن يعرف ما خلف الجدار القريب إن لم يكشف عنه . . . فإنّ ظهور الله نفس العدل . . . فلما صحّ أن ابن آدم أفضل المخلوقات ، وجب أن يحتجب البارى في أشرف المخلوقات » [الرسالة ٦٧] .

وكذلك الرسالة ٧٠ تردّد « أن فيثاغورس^{١٠} كان يعتقد أن البارى موجود^{١١} نور^{١٢} مخض . وأنه لا بس جسدًا ما ، يستتر به لئلا يراه لإلّا امن استاهل ذلك واستحقه وقام في عبادته . . . وهكذا يقول أفلاطون معلم أرسطوطاليس ومن اتّبعه^{١٣} » .

« إن البارى سبحانه لا تخلو الدار من وجوده طرفة عين . ولو خلت الأرض منه لزال الحجة عن الخلق في تلك اللحظة » [الرسالة ٧٥] . « ظهر بالشكل البشرى لأنّ حكمته قضت بذلك إشفاقًا على جهل العالم المتمسك بالمحسوسات . وامتحانًا لهم . لتكمل عليهم الحجة » [الرسالة ٤٤] . فظهوره « إنسيّة لعقولنا . وشفقة منه علينا » [الرسالة ٢٤] .

هذا الظهور — كما تقول الرسالة ٤١ — غير حسيّ . فإنه حين كان يركب للخروج في النهار « كان للأثان ظل^{١٤} . ولا ظل^{١٥} للراكب . . . لاهوته المحجوب عنا . وناسوته المظهر لنا » [الرسالة ١٩] .

نكتفي بإيراد هذه النصوص ، وإن كانت الرسائل حافلة بكثير منها . وما أوردناها إلا وفاءً بأمانة النقل . ولا اختلاف فيها عما ألفه الناس في كثير من العقائد السارية ، إلا جدة إعلانها وفجاءة ظهورها .

أسفار الخليفة

ليست فلسفة العقيدة ، المستند الروحي الوحيد لأتباع هذا المذهب . فهناك مستند آخر قائم على أسفار ، بعضها منسوب إلى زمن غارق في مجاهل التاريخ ، اصطلاح العرب على تسميته زمن الفِطْحَل ؛ لم يكن قد خُلِق فيه البشر بعد . وبعضها يشبه الأسفار « الأبوكريفية » من التوراة ، أو التابعة لها . بل يأخذ الكثير عنها مما يصعب التثبت منه تاريخياً . لأنه خارج النطاق التاريخي الجلي ، ومجال نقده العلمي .

وبعضها يؤلف مع سائر الأديان السامية قاسماً مشتركاً فيما يرويه عن الأنبياء ، وسيرهم ، وأدوارهم في تطوير مجتمعهم روحياً . ولكنه يضيف إلى الأدوار الزمنية المعروفة أدواراً لاهوتية ، بازدواج رمزي يقصد منه إلى التوفيق بين ظاهرها وبين باطنية التعاليم .

فإنها تعتبر التاريخ الزمني شيئاً ، وعمل الرسالات الروحية شيئاً آخر ، لم تدوّن حقيقة مفعوله في التاريخ المكتوب . الذي قدّمنا أَلَمَّ بالعوامل الخفية التي تفعل في تغيير مجرى الإنسانية أكثر من الحوادث الظاهرة التي يرويها المؤرخون .

هذا التبطين ، والازدواج . و « الإمداد » يستغرق توضيحها وشرحها فصولاً طويلة نكتفي باقتباس شذرات من الرسائل تبدّل عليها . وحسبُ القارئ أننا نشاركه في خفاء الكثير منها علينا .

تصف الرسالة ١٣ كيف كان الوجود عند بداية « العقل الكلّي » عبارات نوجزها جهنماً بما يلي :

تقول إنه في ذلك الحين لم يكن سماء . ولا أرض . ولا ملائكة . ولا لوح ، ولا قلم . . . ولا شمس . ولا قدر . ولا كواكب . ولا جنة للناظرين مَرُئِيَّة . ولا جنة بالعهد مَرُضِيَّة . ولا نار . ولا أرواح . « ولم يكن عند

ظهوره (ظهور العقل) أيام . ولا أنام . ولا شهور ولا أعوام . ولا ناقص ولا تمام . ولا حواس ولا أوهام . ولا زمان . ولا مكان . ولا دهر ولا أوان . ولا ليل ولا نهار . ولا غامر ولا عُمُـار . ولا بحار ولا قفار . ولا فلك دَوَّار . غير مولانا البار العلى الجبار سبحانه لا يدخل تحت الأسماء والصفات واللغات . . . لا قديم ولا أزل . لأن القديم والأزل مخلوقان جميعاً .. والبار خالقهما » .

بعد وجود العقل فى الخليفة ، وقد أفردنا له فصلاً سابقاً ، تقول الرسالة ١٢ « إنَّ آدم ثلاثة . هم « آدم الصفاء الكلى » . و « آدم العاصى الجزئى » . و « آدم الناسى الجرمانى » .

١ - « آدم الصفا » : أى صفى الله ، خلقه الله « بيده » أى أبدعه من النور المحض . و « نفخ » فيه من روحه . ذلك بعد ٣٤٣ مليون سنة من بدء العالم . و « حاشا الله أن يخلق صفيه من التراب » . . . ظهر فى عالم يقال لهم الجن . كانوا يعبدون العدم . وخدم فى دعوة التوحيد فى الأعصار : قبل الدور الذى لُقِّب فيه بآدم . وكان اسمه شطنيل . . . جعله الله إماماً وأمر الملائكة ، أى الدعاة ، أن يسجدوا له ، أى أن يطيعوه . فأطاعوه ، إلا « حارت » . فإنه أبى واستكبر ، [إشارة إلى الآيات ١٠ و ١١ و ١٢ من سورة الأعراف : « ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم . فسجدوا . إلا إبليس . . . قال أنا خير منه . خلقتنى من نار وخلقته من طين »] . . .

« إن البارى خلقه كصورته ، أى فرض طاعته على العالمين كطاعته . . . » والخروج من الجنة هو الخروج من الدعوة . وقيل أبو البشر . وهم الموحِّدون . قبلوا منه التوحيد فصار أباهم فى الدين . . .

٢ - وتمضى الرسالة فتقول : « وأما « آدم العاصى » ، ويسمى الجزئى ، الثانى الذى نطق القرآن به أنه عصى ربّه ، فهو « أنخوخ » ، حُجّة آدم الصفا . و « أخوه » الذى انتقل إلى هجر للخدمة فى دعوة أخيه . . . سَمَّى العاصى لعصيانه بإغواء الشيطان . ولقبه « حوّاً » . . .

٣ - . . . « آدم الناسي » هو « شرخ » ، ثانی حجة آدم الصفا .
اسمه الآخر « شيت » . لقبه الناسي ، إشارة إلى الآية [١٥ سورة طه]
« . . . فنسي ولم نجد له عزماً . . . »

قصة الجنة :

اختارهما شطنيل (أى أخنوخ وشرخ) . وجعلهما مقامه في الدعوة .
وكل منهما بلقب آدم . لأنه جعلهما أبوين للموحدين . وأسكنهما « الجنة » .
« فصار أخنوخ بمنزلة الذكر . وشيت بمنزلة الأنثى . وأوصاهما بأن لا يعبدوا
غير مولانا البار » . والبار هو اسم الله الذي تجلى به في شكل الناسوت البشري
في وقت شطنيل . وقال لأخنوخ : اسكن أنت وشرخ الجنة (أى دعوة
التوحيد) . وكلأ منها (أى نالا المنزلة الرفيعة) . ولا تقربا هذه الشجرة (أى
لا تدعيا منزلة شطنيل) فتكونا من الناكثين » . [إشارة إلى الآية ١٩ سورة
الأعراف : « يا آدم ، اسكن أنت وزوجك الجنة . فكثلا من حيث
شئنا ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين »]

« فأزلهما الشيطان عنها (أى عن الوصية) . وأخرجهما (من المنزلة) .
والشيطان غير إبليس . كان مأذوناً من قبل إبليس نافق معه على شطنيل .
و « الحية » كان داعياً من قبل أخنوخ واسمه « آبل » . و « الطاووس »
كان مأذوناً في الدعوة ، اسمه « طايوخ » . »

وتجری القصة : إن الهبال (الشيطان) لم يزل يتردد إلى آبل الداعي
(أى الحية) والطايوخ (الطاووس) ويقول لهما :

— عندي نصيحة لسيدنا « أخنوخ » وأخيه « شرخ » (وهما آدم العاصي
وآدم الناسي) لكما فيها صلاح .

حتى أوصلاه إليهما . فلما دخل إلى أخنوخ ، خرّ له ساجداً . فقال له
أخنوخ : « عماك رجعت عن كفرِكَ » — فقال له الهبال : « لا وحقتك ،
وحق البار ، ما جئت إلا ناصحاً لكما ، غيرةً مني عليكما بما ظلمكما

شطنيل . . . فقد سمعت مولانا البار سبحانه يقول : « إن الإمامة لأخنوخ . وشرخ خليفته في الدعوة » . فاستحلفه أخنوخ . فحلف له أنه صادق في مقاله . فحمله شره النفس . . . ونسى ما أُخِذَ عليه من العهد .

« فأكلَا من الشجرة (مقاومتها لآدم الصفا) . وادّعى أخنوخ منزلةً ليست له . . . فبدت لهما سوءاتهما . . . ففطفا يخصفان عليهما من ورق الجنة (أى يستران ظواهرهما) . فلم ينفعهما ذلك . ونودى بين المستجيبين : « أخنوخ عصى آدم » . . . وأسقطا من المنزلة التي كانا فيها . فأقاما سنين بكثرة يبكيان على ما فعلا . ويسألان الإمام العفو عنهما [إشارة إلى الآية ٢٣ سورة الأعراف : « قالاربنا ظلمنا أنفسنا . وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين »] . فرحمهما شطنيل ، وسأل البار بأن يعفو عنهما . فعفا . . . وردّهما إلى المنزلة التي كانا فيها . وقرّبهما إليه » .

الأدوار :

هكذا تمضى الرسائل في تفسير ما ذكر في الآيات والتوراة تفسيراً باطنياً فتقول مثلاً الرسالة ٣٦ : « إن آدم المشار إليه قد كان قبله أعصار . وهم الطم . والرم . والخن . والجن . والبن » . وتفسّر هذه الرموز . فتقول إنها شرائع ما قبل زمن التوحيد . . . فالبن مثلاً « قوم تخلصوا من الشبهات . وعرفوا المعبود فعبدوه . . . » . . . « والجن قلة انعكسوا وحادوا عن المولى . . . » . إلخ . وإن « الأدوار » أو العصور هي الشرائع المتعاقبة من وقت آدم إلى وقت حمزة . وهى :

- ١ - دور آدم : استمرّ ألف ومايى سنة . وكان قد ظهر بعد التكوين بـ ٣٤٣ مليون سنة . وفي هذا الدور ظهر شطنيل كما ذكرنا .
- ٢ - دور نوح : ابن لامخ ، سبط متوشالغ . يفسّر الطوفان بأنه شريعة التي غمرت الأرض . والفلك دعوته المنجية . استمرّ دوره ألفاً وخمسمائة سنة .

في الأساطير اليونانية مثل قصة الطوفان . تروى أن « دوكالون » ابن « بروميثيوس » بنى فُلُكًا استوى به وبزوجته « پيرها » على جبل « برناسس » بعدما عزم « زفس » ، الإله ، على هلاك البشر بالطوفان .

وفي « المهابهاراتا » الهندية « نوح » آخر . اسمه « مانو » . أنذر ببناء فُلُك . بعدما أنقذ به أصبَحَ أبًا لجميع البشر . وفي الأساطير الصينية كذلك قصص للطوفان مروية .

٣ - دور إبراهيم ، الذي عاش في أور الكلدان بين عبدة الأصنام في حكم « نمرود » الذي ألقاه في النار ، فكانت « بردًا وسلامًا » [كما تقول الآية ٦٩ من السورة ٢١] . وصحف إبراهيم مذكورة في القرآن الكريم . في سنة ١٩٢٧ نشرَ ج . هـ . بوكس ترجمة كتاب « يوناني » زعم أنه صحف لإبراهيم .

تقول هذه الأسفار إن إسماعيل هو « ابنه الوحيد » الذي أراد تقديمه ذبيحة للرب . فإنه ولد لما كان عمر إبراهيم ٨٦ سنة [سفر التكوين . الإصحاح ١٦ العدد ١٦] . أما إسحق فإنه وُلِدَ بعده بـ ١٤ سنة أي لما كان عمر إبراهيم ١٠٠ سنة [التكوين ٢١ العدد ٥] . ومع هذا يقول سفر التكوين [الإصحاح ٢٢ العدد ٢] إن إسحق - الابن الثاني - كان هو الضحية التي أراد تقديمها .

٤ - دور موسى : كان في مصر ٤٨٠ سنة بعدما يوسف الصديق . وكان خروجه بقومه من مصر في عهد « تحوتمس » الأول سنة ١٥٤٠ ق.م . كتب التوراة باللغة الآرامية ثم ترجمت إلى العبرانية [٥ كتب هي : التكوين . الخروج . اللاويين . الأعداد . أخبار الأيام] . وكان دوره أطول الأدوار (١٧٠٠ سنة) . عاش ١٢٠ سنة ؛ ٣٨٠٠ سنة بعد آدم .

٥ - دور « عيسى » ابن يوسف ومريم . ظهر ٥٥٠٠ سنة بعد آدم . صُلِبَ سنة ٥٥٣٤ شمسية (٥٧٦٣ قمرية) منذ عهد آدم ، و ٢٨٠٠ سنة

بعد الإسكندر . ولم يُعرَف إلا في السنوات الثلاث الأخيرة من حياته ،
وقد عاش ٣٣ سنة و ٣ أشهر . وطال دوره ٦٢٠ سنة .
وتقول الأسفار إن « المسيح » عليه السلام هو « يسوع » ومعناه المخلص .
وتطلق عليه رسائل « الحكمة » أسماء عديدة . منها : « قائم الحق » . « إمام
الزّهان » . « ملكوت السموات » ... وسنفرد فصلاً خاصاً عنه يوضح نظرية
الحكمة .

٦ - دور محمد : كما هو معروف . تذكر الأسفار أن رفيقه وممدّه
كان سلمان ، ابن ملك برهمي ، ثقفه راجباً أوصاه قبل موته أن يسعى إلى
نبي اسمه محمد ، يظهر في مكة . وأن محمداً لما رآه لأول وهلة قال : السلام
على من آمن بي منذ ٤٠٠ سنة قبل أن أُولد . وكان سلمان الرفيق الأمين
لرسول الأمين .

٧ - الدور السابع : سنأتي على ذكره فيما بعد . به تنتهي الأدوار السبعة .
والرقم ٧ له معنى رمزي . فالأدوار ٧ . والسموات ٧ . والمقامات ٧ . والأئمة ٧ ،
ولنأتى على ذكرهم فيما يلي ، توفيةً للوضوع .

الرقم ٧

لهذا الرقم دلالة رمزية لمعنى "باطنى". فالأدوار ، كما رأينا ، سبعة .
والسماوات سبعة . والمقامات سبعة . والأئمة سبعة . و « علل العالم الروحاني ٧ »
(وهم الحدود الخمسة والناطق والأساس) . والمدبرات ٧ (زحل مشتري .
مريخ . شمس . زهرة . عطارد . قمر) والأيام ٧ . والنطقاء ٧ .
والأوصياء ٧ . والشرائع الظاهرة ٧ . والشرائع الباطنة ٧ . والدعائم الظاهرة ٧ .
والدعائم الباطنة ٧ . والفرائض التوحيدية ٧ (أما تفريع هذه في « ميثاق النساء »
إلى ١٠ فهو زيادة لإيضاح . إذ أن معرفة الله هي أولى فرائض الميثاق ،
متفرعة عن الفريضة ٥ التي هي التوحيد . وهكذا معرفة القائم ومعرفة الحدود
متفرعتان من حفظ الإخوان) أضف إلى ذلك أن الحاكم أنار الشموع
٧ سنوات . ولبس الصوف ٧ سنوات . وألزم النساء منازلهن ٧ سنوات . . . إلخ .
فقد ذُكر : « كل شيء إذا بلغ ٧ انتهى ووجب تغييره وحدوث غيره » . . .

٧ سماوات :

هذا تشبيه رمزي : لأمكنة وأشخاص وحالات ؛ حفلت به الأدبان
والأشعار في الشرق والغرب . واستعاره الأدب الباطنى لمعاني ومنازل روحية .
أما في علم الباطن فإن « . . . سبع سماوات طباقاً . . . » [في الآية ٣ سورة
المُلْك] هم : إسماعيل . محمد . أحمد . عبدالله . محمد . الحسين . عبدالله .
ابنًا عن أب خلفاء بالتسلسل .

هؤلاء هم « أئمة السَّتر » السبعة . جدّهم الأعلى الحسين بن عليّ
ابن أبي طالب . سَمَّوْا سماوات . وهم المستودعون لسرّ الحقيقة . كان آخرهم
عبد الله في القرن الثالث للهجرة . وقد استروا تحدُّرًا من أعدائهم الحكام
العباسيين .

فى وقت « السماء الثالثة » ، أحمد ، ظهر « مقام » أبى زكريا بدون ملك دنيوى. وظهر معه «العقل» فى شخص قارون الذى كان عجمياً . [الرسالة ٣٦] .
وفى وقت « السماء الرابعة » ، عبد الله ، ظهر « مقام » علياً . وعبد الله هذا هو أول الأئمة الذين سابعهم « المعز » ، وثاءنهم العزيز . وتاسعهم « الحاكم » آخر الأئمة وخاتمهم .

وفى وقت « السماء الخامسة » محمد ، ظهر « مقام » الملقب بديار تدمر .
أما « السماء السابعة » عبد الله فقد سُمى أيضاً أحمد والمهدى . ابنه سعيد المهدى . فهو أبو سعيد المهدى . وسعيد المهدى هو الملقب « عبيد الله » ..

٧ مقامات :

المقامات : عند الدروز والإسماعيلية ، هى الظهورات أو التجليات . وهى فى نفس الوقت إمامات .

١ - العلی .

٢ - البار .

٣ - أبو زكريا : ظهر فى وقت السماء الثالثة . فى آخر عهد البار سنة ٢٢٠ هـ .

٤ - علياً : ظهو فى وقت السماء الرابعة .

٥ - الملق : ظهر فى وقت السماء الخامسة . فى وقت الإمام المستر عبد الله (السماء السابعة) .

هؤلاء الثلاثة الأخيرون . معروفون أباً وابناً وحفيداً ، من مقامات السر .

٦ - القائم : كان طفلاً استدعاه ، مع سرّ إمامته ، أبوه الملق برباعية سعيد المهدى الملقب « عبيد الله » (ابن السماء السابعة) سنة ٢٨٠ هـ . وكان سعيد فى العشرين من عمره . هرب بالقائم من وجه العباسيين إلى مصر سنة ٢٨٩ هـ . فإلى شمالى أفريقيا غرباً سنة ٣٠٨ هـ . مما سأتى ذكره فى فصل الفاطميين . فهو مؤسس دولة الخلافة الفاطمية فى مصر . وهى امتداد للدولة

« العبيدية » التى أنشأها « عبيد الله المهدي » ، وتماها المؤرخون باسمه ، فى المغرب .

تلاه المنصور الذى حكم من ٣٣٤ إلى ٣٤١ هـ . ثم المعز من ٣٤١ إلى ٣٦٥ هـ . وهما ، مع القائم ، يُعتبرون ، فى المذهب ، ذاتاً واحدة .
٧ - العزيز : من سنة ٣٦٥ إلى ٣٨٦ هـ . وأخيراً الحاكم (المنصور) الذى سنفرد له فصلاً خاصاً . وهما : فى حساب المذهب ، واحد . كقول الإنجيل : « أنا والآب واحد » .

٧ إمامات :

فى الدور السادس المار ذكره ظهر الأئمة الظاهرون والمستترون . المستترون هم « السماوات » ابتداءً بإسماعيل وانتهاء بعبد الله ، سلالة واحدة خلافة من الأب إلى الابن . ومثلهم الأئمة الظاهرون . لمدة ١٨٠ سنة . وهم :

١ - على بن أبى طالب . الإمام « المرتضى » .

٢ - الحسن « المُجْتَبَى » . ولد سنة ٢ هـ . فلما قُتِل والده الإمام على بايعه أربعون ألفاً من أهل الكوفة سنة ٤٠ هـ . ثم بعد سبعة أشهر تخلى لمعاوية . ومات بالسُم سنة ٥٠ هـ .

٣ - الحسين (شقيق الحسن من فاطمة الزهراء) شهيد كربلاء . وهو بحساب الإسماعيلية ، أبو الأئمة السبعة الباقين . ولكن أبو الاثنى عشر إماماً ، بحساب الموسوية « الاثنى عشرية » ، أتباع موسى « الكاظم » : أخى لإسماعيل الإمام السابع ، باعتبار أن الثامن هو على « الرضى » ، والتاسع محمد « التقي » ، والعاشر على « النقي » ، والحادى عشر حسن « الزكى » ، والثانى عشر محمد « الحجة » (بالتسلسل) وهو « الغائب المنتظر » أى المهدي الذى سيعود . وكانت مدتهم جميعاً ٢٥٠ سنة .

٤ - على . ابن الحسين الأصغر . فإن الابن الأكبر قُتِل فى كربلاء . لُقِّبَ على « زين العابدين » . مات بالمدينة سنة ٦٤ هـ . عن ٥٨ عاماً .

ابنه زيد الذى تنسب إليه الزيدية باليمن .

٥ - محمد الباقر . ابن على . مات بالمدينة سنة ١١٧ هـ . عن ٧٣ عاماً .
إليه تُنسب « الباقرية » .

٦ - جعفر الصادق . ابن الباقر . مات بالمدينة سنة ١٤٨ هـ . إليه
تُنسب « الجعفرية » .

٧ - إسماعيل . ابن جعفر . آخر أئمة الدور السادس . إليه تنسب
« الإسماعيلية » أو « السبعية » (نسبة إلى هؤلاء الأئمة السبعة) ، وهم القائلون
بسبعة أئمة مستورين وسبعة ظاهرين . من هنا نشأت « الباطنية » والقول بأن
لكل قول ظاهر وباطن . والموحدون - الدروز - يسمون الإسماعيليين الإخوان
المقصرين بعدما انفصلوا عنهم .

هكذا أخذت الفرق الإسلامية تتألف وتفرق . منها الغلاة الذين اعتقدوا
الأوهية في بعض أئمتهم . ومن الغلاة « الحمرأوية » و « النصيرية »
و « الشمطية » و « الكيسانية » إلخ .

الفاطميّون (الباطنيون)

أقام « المَعْلَ » ، كما مرّ بنا ، قُبَيْلَ غيبته : سعيداً المهديّ وصيّاً على ابنه « القائم » . وسعيد هذا هو الذي سمي في المغرب عبيد الله « المهدي » ، وإليه نُسبت دولة العبيديين . وُلِدَ بمدينة « سلمية » بالشام سنة ٢٦٠ هـ ابنًا لإمام السّتر السابع . فلما بلغ العشرين من العمر تسلّم « القائم » وديعةً من والده المعلّ . وانتقل به إلى المغرب . زاعماً أنّه ابنه :

هناك استطاع أن ينشر الدعوة في مأمّن من الخلفاء العباسيين . وذلك بعد مغامرات كثيرة . ففي مصر ، التي وصل إليها في سنة ٢٨٩ هـ ؛ كان تاجراً . وفي سلجّم سنة ٢٩٦ هـ تسمّى عبيد الله ولُقّبَ بأمر المؤمنين . وكثّر أنصاره وأعوّاه ومريديه .

تحدّراً من العباسيين ، وتحصّناً من عمالهم في تلك الديار ، انتقل سنة ٢٩٧ هـ . إلى رَقَادَة في القيروان ، وهي إلى الجنوب الشرقي من تونس ، حيث بنى مدينة سمّاها « المهديّة » . واستقرّ بها . وهي شبه جزيرة ، حصّنها بسور وأبواب من الحديد ، سنة ٣٠٣ هـ .

منها اتسع ملكه ، حتى شمل بلاد المغرب وصقلية ، بعدما تغلب على دولة بني الأغلب ، عمال بني العباس على شمال أفريقيا ، سنة ٣٠٨ هـ . فاستتبّ له الحكم من الأطلسيّ . حتى محدود مصر . وأعلن أنّ القائم ابنه . وكناه « أبا القاسم » . وجعله وليّ عهده .

وكان « القائم » يقود الجيوش . سيّره بها المهديّ إلى مصر مرتين : سنة ٣٠١ هـ ، حيث استولى على الإسكندرية والفيوم . ورجع سنة ٣٠٢ هـ . وثانية سنة ٣٠٦ هـ إذ استولى على دميّاط والرّشيد ، وعاد إلى المهديّة .

وكان له في خلال ذلك أشياخ في بغداد ، والشام ، ومصر ، وخراسان ، يوفد إليهم الرسل يدعون للفاطميين ؛ متخذاً من الانتساب إلى فاطمة الزهراء

ابنة الرسول الحقّ بالخلافة دون بنى العباس . وطالت خلافته ٢٥ سنة ونيف . وله من البنين ستة ومن البنات ثمان . وعاش ٦٤ سنة .

القائم :

انتقلت الخلافة إلى القائم . فكانت مدتها ١٢ سنة و ٧ أشهر وعاش القائم ٥٤ سنة و ٧ أشهر ، بإمامة ظاهرة ، وهي السلطة . وإمامة باطنة في التأويل مجازية .

من أهمّ الأحداث في خلافته الحرب بينه وبين مخلّد أحد ملوك المغرب وهو من الأباضية . فقد كان انتصار القائم بعدد قليل من أتباعه على مخلّد وجيشه الجرّار من بواعث انتشار دعوته وإقبال الأقوام على طاعته .

وكان القرامطة : في شرق الجزيرة العربية ، من أنصار القائم . وأشدّ الجماعات تحمّساً له . وكانوا قد ظهروا في المشرق في عهده . يأتمرون بأمره ، على بُعد الشقّة . حتى إنهم لم يقبلوا أن يعيدوا « الحجر الأسود » إلى مكة لقاء خمسين ألف دينار عرضت عليهم . ولكن أعادوه ، دون لقاء ، لما أمرهم بإعادته القائم .

يُروى عن هؤلاء القرامطة الذين ظهر مذهبهم في نواحي هجر في خلافة المعتضد سنة ٢٨١ هـ . أنهم أغاروا على بغداد وقهر المعتضد . وكانوا يقطعون طريق الحج . وينهبون . حتى امتنع الناس سنة ٣١٢ عن الحج خوفاً منهم . وأغاروا على مكة سنة ٣١٧ وأمعنوا في الحجاج سلباً وتقتيلاً . ونهبوا الكعبة . ونقلوا الحجر الأسود إلى هجر حيث احتفظوا به ٢٢ سنة ، حتى أمرهم الخليفة الفاطمي برده في يوم النحر . وفسرّوا الفرائض رمزيّاً ، كما فعل بعدهم الموحدون . فقالوا: مثلاً ، إن الصلاة هي الطاعة للإمام . والصوم الصمت وكتمان العقيدة عن غير أهلها .

المنصور :

هو الخليفة الثالث ، ابن القائم . تولى الخلافة سنة ٣٣٤ هـ . وله من العمر ٣١ سنة . باسمه سميت « المنصورية » التي بناها أبوه في مكان المعركة مع محمد بن كيداد الزناني . تلك المعركة التي انتشرت بعدها دعوته واستمر انتشارها في خلافة المنصور الذي امتدت « إمامته » ٤١ سنة و ٥ أشهر . وخلافته ٧ سنوات ساد خلالها الاستقرار في جميع أنحاء مملكته . وكانت « غيبته » سنة ٣٤١ هـ .

المعز :

تولى الخلافة بعد أبيه المنصور . اسمه « محمد » . وكُنِيَ بِـ « أبو تميم » . ولِد (الموحدون يقولون « وُجِد ») سنة ٣١٩ هـ . ونشأ في « المهديّة » إلى أن بويع بالخلافة وله من العمر ٢٢ سنة . كان عالماً . له مؤلفات ومصنفات باطنية ونفاسير قرآنية وحكم . من أقواله :

« العقل أعلى ما في الإنسان . . . لو شئتُ رضى الناس لبلغته بأيسر الأمور ، وهى التخلية بينهم وبين شؤنهم . ولكن الله عزّ وجلّ قلدنا أمورهم ، وافترض علينا تقويمهم . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فنحن نريد نجاتهم من النار ، وهم يسخطون علينا . . . إن الحق مرّ ، إلا عند القليل . . . أريد منكم الصديق والعفاف والتواضع » .

وله قصائد . أشهرها « الملحمة المعزية » . نعتقد أنه أدخل عليها وعلى كثير من قصائده حشو وتحريف لا يخفيان على من يلاحظ التفاوت بين الجزل والركيك من أبياتهما . نغزوهما إلى جهل النقلة والنساخ .

مدحه بقصائد من عيون الشعر شاعرُ المغرب الأندلسي « ابن هاني » . أشهرها قصيدته في فتح مصر . فيها تعريض بالعباسيين . فإن المعز ، بعد ١٧ سنة من سني خلافته ، سنة ٣٥٨ هـ . وجّه قائد جيوشه « جوهر » الصقلي ،

فاستولى على مصر في خلال خمسة أشهر . انتزعها من «المطيع لله» العباسي الخليفة ببغداد . وأقيمت الخطبة فيها للمعز . كما أقيمت بعد سنة في المدينة المنورة .

بنى جوهر القاهرة « المعزية » ، وهو اسمها الأصلي . فدخلها المعز بعد أربع سنوات من فتح مصر . واحتجب في قصره سنة ، تولى خلالها الحكم ابنه « العزيز بالله » ، المقام الرابع والخليفة الخامس .

العزيز :

« وُلِدَ » بالمهيدية سنة ٣٤٤ . وسمي « نزار » . وكنيته « أبو المنصور » . ولقبه « العزيز بالله » عند توليه العهد بعد أربع سنوات من قدومه إلى مصر مع أبيه .

بويع بالخلافة سنة ٣٦٥ هـ . وبعد أربع سنوات أطاعه واستجاب لدعوته « عضد الدولة » البويهي بمدينة شيراز من بلاد فارس ، وهو الملك الذي اشتهر بالقصائد التي نظمها في مدحه « المتنبي » وهي سبع قصائد من غرر شعره . كان القرامطة تحت طاعة العزيز ، وعوناً له في بسط سلطانه على أقطار عديدة مدّة خلافته التي استمرت ٢١ سنة : حتى سنة ٣٨٦ هـ .

المنصور :

تولى الخلافة بعد أبيه العزيز . وعمره ١١ سنة . كنيته « أبو علي » . ولقبه « الحاكم بأمر الله » . وهو سادس الخلفاء الفاطميين وخامس المقامات . اتسع ملكه . ودان لسلطانه معظم الأقطار الإسلامية في حكم استمر ٢٥ سنة . قهر في خلاله بني العباس . وأبطل الخطبة للقادر بالله العباسي . وكانت سيرته من أعجب السير وأغربها منذ الحداثة . اختلف فيها الرواة . منهم من أنصف . ومنهم من جابر . وهذا ما يحدونا إلى أفراد فصل خاص عن هذا « الحاكم » فضائله موضوعياً ما استطعنا امتخلاصه من رسائل المذهب

الذى نشأ فى عهده، وروايات المؤرخين الذين أثار حفيظتهم هذا المذهب .
 والفصل فى رأينا بعيد عن الإحاطة بتلك الحياة الغامضة ، الحافلة بالروائع
 المحيرة والمتناقضات المذهلة . وفيما نرويه نتوخى الصواب والتجرد التام . فلا
 نأخذ على عاتقنا إثباتاً أو نقداً أو نفيّاً ، شأننا فى سائر فصول هذا الكتاب .

الحاكم

« ظهر » الحاكم في القاهرة سنة ٣٧٥ هـ ، وحكم ٢٥ سنة من ٣٨٦ إلى ٤١١ هـ ، في أثنائها لم نجد في سيرته ، ولا في أقواله ، انحرافاً عن الإسلام اللهم إلا ما نُسب إليه من أطوار ظهر أغرب منها في بعض الخلفاء الأمويين ، بل نجد فيها أدلة اعتزاز بإسلامه ونسبه إلى الرسول ، وإن هو انحرف عن السنة باجتهاد باطنى في بعض الأحيان ، ومارس فرائضها على طريقة خاصة به .

فما يروى عن إمعانه في نشر الإسلام ، والغلو فيه ، أنه ، خلافاً لما أوجبه الإسلام من سماحة مع أهل الذمة ، يهوداً ونصارى ، كان يُكْرِهُهُمْ على الإسلام ، حتى إنه هدم لهم هياكل وكنائس في سبيل إكراههم . ثم عاد فأمر ببنائها من أجل مَنْ أَصَرَ مِنْهُمْ على الامتناع عن الإسلام . وعين يهوداً اليهودى ويونس النصرانى وزيرين . ثم عاد فقتلها لأمر ما . كما أنه كسا الكعبة ثم منع كدوتها ، ولكنه وقف الأوقاف ، وبنى المدارس الدينية . وشاد دور العلم ، وأجرى على العلماء والفقهاء والمحدثين الأرزاق والرواتب . وكان ميالاً إلى المذهب المالكي .

ليس لدينا من أقواله هو ، ما يدل على دعوى الألوهية ، ولا نعلم مبلغ صلته الشخصية بالدعوى ، بل كل ما لدينا ، مما هو منسوب إليه في كتب « الحكمة » ، أو صادر عنه ، أو مُفْتَرَضُ اطلاع عليه ، لا يعدو الممارسة لشروط الخلافة وأحكام الإسلام ، مهما قال عليه بعض المؤرخين .

يقول « المقرئى » في كتابه « اتعاظ الخنفا » : « إن الحاكم أمر » أن يزداد على قولهم « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » . وأن لا يُصَلَّى أَحَدٌ عليه في مكاتبة ولا مخاطبة . وأن يُقْتَصَرَ في مكاتبته على : « سلام الله وتحياته ونوامى بركاته على أمير المؤمنين » . وفي خطبة يوم الجمعة

” اللهم صلّ على محمد المصطفى ، وسلّم على أمير المؤمنين المرتضى ، اللهم سلّم على أمراء المؤمنين آباء أمير المؤمنين ، اللهم اجعل أفضل سلامك على عبدك وخليفتك . . . “

ولنا في الرسائل الثلاث الأولى من كتاب « السيرة » مصداق لما نقول :

١ - جاء في « السجل » الذي وُجِدَ معلقاً على المشاهد ، بعد البدء بعبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » ، والدعوة إلى « التوبة إلى الله تعالى ، وإلى الخليفة في أرضه أمير المؤمنين » والصلاة « على سيد المرسلين محمد المبعوث بالقرآن » . . . ما يلي :

« . . . فاشكروا الله ووليّه . . . إنّ تعدّوا نعمة الله لا تحصوها . فعثّم في فضل أمير المؤمنين . . . ثمّ من نعيمه الباطنة عليكم إحياءه لمن الإسلام والإيمان التي هي الدين عند الله . . . وبنى الجوامع ، وعمّر المساجد ، وأقام الصلاة في أوقاتها ، والزكاة ، والحجّ ، والجهاد ، وعمّريت الله الحرام . وأقام دعائم الإسلام . وخفر الحجّ . وحفر الآبار . وأمنّ السبيل . وعمّر السقايات . . . ويحثّكم على طاعته وطاعة رسوله وأوليائه عليهم السلام . . . وفتح لكم دار علم . . . فأعرضتم . . . ورفضتم العلم ، وأظهرتم الجهل . . . إنّ الإسلام والإيمان قد شملكم وجنّعتكم تحت طاعة الله وطاعة رسوله ووليّه أمير المؤمنين سلام الله عليه . . . »

ويُنْهَى « السجل » هكذا : « . . . كتبه مولى أمير المؤمنين سلام الله عليه في شهر ذي القعدة سنة إحدى عشرة وأربع مائة . وصلى الله على محمد سيّد المرسلين ، وخاتم النبيّين . وسلّم على آله الطاهرين » .

هذا المنشور يدلّ على أنّ « الحاكم » كان يمارس سلطته كما يمارسها سائر الخلفاء المسلمين ، وأما الدعوة الباطنية التي تولّاها وزيره حدّزة فليس لدينا دليل على علم الحاكم بها .

٢ - أما المنشور المسبّب « السجل » المُنْهَى فيه عن الحذر « الذي كتب سنة ٤٠٠ هـ ، فإننا ننقل منه ما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذى أعزَّ الإسلام بأوليائه المتقين . . .
وصلى الله على جدِّنا محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين . صلى الله عليه وعلى
آله الطاهرين . . . إنَّ أمير المؤمنين بما قلده الله ووكل إليه من أمور الدين
والدنيا . . . والله عزَّ وجلَّ ومجلىَّ أمير المؤمنين على ما يرضيه . . . وقد أمر أمير
المؤمنين بكتابة هذا المنشور بالنسبة عن شرب شئ من المسكر وعن اقتنائهِ
وعمله . . . »

« كُتِبَ في شهر ذى القعدة سنة أربع مائة . والحمد لله وحده : وصلواته
على رسوله خاتم النبيين وآله الطاهرين ، وسلامه . »

٣ - في الرسالة الثالثة يقول « الحاكم » :

« أسألوا عما أردتم وأنتم آمنون بأمان الله تعالى وأمان جدِّنا محمد وأماننا . . . »
على أن حمزة بكتابه [الرسالة ٦] يقول إنه رفعه للحضرة اللاهوتية سنة
٤٠٨ هـ . ويقول عنها إنها « أولى سنى ظهور عبد مولانا ومملوكه : هادى
المستجيبين ، المنتقم من المشركين بسيف مولانا جلَّ ذكره ، لا شريك له ،
ولا معبود سواه . . . »

بهذا ، في ذلك الحين ، أخذ حمزة الميثاق على المستجيبين للدعوة
السريَّة . وإن كان الكتاب الأوَّل يخالف ، كما رأينا ، هذه الرسالة ٦ .
ولا يتضمَّن دعوتها . والسبب ، على ما نرجَّح ، هو أنَّ ذلك الكتاب وُجِّه
فيما بعد بشكل منشور علنيَّ لجميع الناس . أما الرسائل السريَّة فإنها تدعو
إلى الألوهية . منها الرسالة ٩ التي جاء فيها :

« الحذر الحذر أن يقول واحد منكم بأنه (أى الحاكم) ابن العزيز
أو « أبو علي » . لأنَّ مولانا سبحانه هو هو في كلِّ عصر وزمان ، يظهر
في صورة بشرية ، بتغيير الاسم والصفة لا غير . »

وإني لأذكر عتاب كبير الأشياخ الثقات لأني ذكرت في أحد الكتب
المطبوعة أنَّ أم الحاكم كانت صقلبية . إذ قال لى إنَّ الحاكم لا أمَّ له ،
مردِّداً ما جاء في الرسالة ٢٦ : « حاشا مولانا جلَّ ذكره من الأب والابن

والعلم والخال . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .
 وفي الرسالة ٣٦ جاء عن « الحاكم » أنه كان « القائم » (بالتجلى) .
 وأنه مع جده « المعز » وأبيه « العزيز » شخص واحد . بقولها « وكلهم واحد » .

من سيرته :

يصفه المؤرخون بأنه كان غريب الأطوار ، مستبدًا ، متقلبًا ، كثير
 السخاء والجود ، متصوفًا ، زاهدًا ، لبس الصوف الحشن تنسكًا وقنوتًا
 ٧ سنوات . وأثار الشدوع ليلاً ونهارًا ٧ سنوات ، وألزم نساء القاهرة
 بيوتهن ٧ سنوات ، ومنع فتح نوافذ للبيوت تطل على الشوارع ، ونهى عن أكل
 الملوخية ، وحرّم من البقول الجرجير ، كما حرّم الخمر بموجب « سجل »
 قُرى على المنابر [الرسالة ٢] . ومنع صلاة التراويح عشرين سنة ثم أباحها .
 ويصفونه بأنه كان ، جبارًا ، هائل المنظر ، مهيب الطلعة ، ذا هيبة
 ونظرات نفاذة . وصوت مجلجل مخيف ، شديد المراس والسطوة ، كثير الرحمة .
 عظيم الشجاعة والإقدام منذ تولى الخلافة وعمره ١١ سنة .

كانت انتصاراته منذ حدوثه أشبه بالأساطير ، فإنه كان يقهر جيشًا
 جرارًا بفتنة من المقاتلة . قيل في تعليل ذلك إن دعوته سبقت فتوحاته ،
 وتغلّغت في بلدان أعدائه ، فكان جنود الأعداء حين يرونه في مواجهتهم
 ينحازون إليه تاركين صفوفهم ، تمامًا مثلما فعلت الجيوش التي أرسلت للقبض
 على نبوليون فانهازت إليه بعد هروبه من جزيرة « إلبا » ونزوله في جنوب فرنسا
 وحيدًا مع نفر من حاشيته .

من ذلك ما يروى عن هجوم الوليد بن هشام ، الملقب « بأبى ركوة » ،
 بجيوشه على القاهرة بعد انتصاراته المتواصلة . وهزمه عندها « الحاكم » بحامية
 صغيرة ، هزيمة شنعاء لم يجد لها المؤرخون تعليلًا ، كما هزم ، ينصر مؤزّر ،
 جموع القرامطة الأشداء ، الذين كانوا قد انقلبوا على الفاطميين بعد موالاتهم
 الطويلة .

إلى جانب بطشه وقسوته كان متحلياً بالوداعة والتواضع والسهرة على الرعية . فقد كان ينتقل وحده في القاهرة وضواحيها بدون مرافقين ولا حرس . في ذلك يقول « كتاب اليونان » [رسالة الدر المكنون] إنه « كان . إذا أراد الطواف في المدينة . يركب على أتان » . ويروى أنه كان يأمر أن تظل الحوانيت مفتوحة طول الليل في غياب أصحابها دون حراسة . ويسترد كل ما يسرق منها فوراً بعلم خارق . وكان يُجرى تفتيشاً دقيقاً لأعمال الدولة ، كثيراً ما يقوم به بنفسه : لمكافحة الغش والإهمال والفساد ، ولإشراف على حاجات شعبه وتصرفاتهم .

تقول الرسالة ١٢ [السيرة المستقيمة] إنه كان يمشي أنصاف الليل في أوساط الذين أعدم آباءهم وذويهم : بدون سيف ولا سكين . ويذهب إلى صحراء الحب وحده حيث كان أعداؤه (مفرج بن جراح وأعوانه) يترصدون له . . . وكان يجعل أخصامه يحملونه على محفة (محارة) ويسرون به بين أعدائه .

ويروى عنه أنه علم سنة ٣٩٣ هـ بأن عدوه ملك الروم باسيل يحج في القدس متذكراً ؛ فبعث إليه برقعة سرية يُعرفه بها أنه عالم بوجوده في بلاده وفي متناول يده . وأنه مع ذلك يهبه نفسه ويتركه يتم حجه . فقد اتسم عهده كعهد والده بالتسامح ؛ فإن « العزيز » رفع إلى أرقى مناصب الكنيسة أحد المسيحيين من أعوانه ، جعله بطريركاً في القدس سنة ٣٧٥ هـ ، وعين آخر مطراناً للقاهرة رقاؤه « الحاكم » فيما بعد إلى السدة البطيركية بالإسكندرية سنة ٣٩٠ هـ . ومنح المسيحيين أماناً جاء فيه :

« هذا كتاب من عبد الله ، ووليّه المنصور أبي عليّ الإمام الحاكم بأمر الله ؛ أمير المؤمنين . . . للجماعة النصارى بمصر . . . أنتم جميعاً آمنون : بأمان الله عزّ وجلّ ، وأمان نبيه خاتم النبيين . . . هذا على نفوسكم ودمائكم وأولادكم وأموالكم وأحوالكم وأملاككم . . . أماناً صريحاً . . . فتقوا به واسكنوا إليه . . . وكفى بالله شهيداً .

كما أنه أصدر قوانين لصيانة الأخلاق ، فنع العث والمجون وخروج النساء ليلاً ، ولصيانة الصحة منع مثلاً عجن الخبز بالأرجل ، وشرب الخمر . ورغبة منه في تنمية الاقتصاد نوى عن ذبح البقر ، مدةً ، للإكثار من الماشية . وكافح الغلاء والاحتكار ، وحدد أسعار المواد الغذائية ؛ وكان يشرف بنفسه على مصالح دولته ، وينزل أشد العقوبات بالمخالفين . ومنع الناس من ذكر عبارة « سيدنا ومولانا » في المكاتبات ، ومن تقبيل الأرض بين يديه ، ومن تقبيل يده عند السلام عليه ، ومن أن يصلّي عليه في الخطب الدينية ، ومن ضرب الطبول والأبواق حول قصره . ومن إقامة الزينات في طريقه إلى المصلّى بجبل المقطم ، إذ كان يخرج للصلاة في أبسط المظاهر .

و « عُنِيَ عنايةً خاصةً بتنظيم القضاء وتطويره من الرشوة » وكان زاهداً في مال الدولة برغم ما تكدّس لديه من الأموال والتحف وكان إذا كثرت أموال أحد رجاله أضافها إلى خزائن الدولة ومع هذا كان يُسْرِف في العطايا والهبات .

كان يرصد النجوم في مرصده بجبل المقطم ، ولكنه حرّم مهنة التنجيم ، سنة ٤٠٤ هـ بمرسوم ، لأنّ المنجمين أخذوا يسيطرون بالشعوذة على عقول الكثيرين من الناس .

في هذا تقول الرسالة ٨٥ : « وأنا أذكر خلل عقل من جعل للنجوم أحكاماً وتقديراً ، وسعداً ونحساً ، وأنّ لها في أرزاق العالم وقسمتها تدبيراً وتأثيراً فمن رضى بشيء من هذا — سوى فعلها في تنمية الأجسام الكيفية — فقد أشرك » . فالمذهب لا يقول بالعجائب ، ولا تنطوي الدعوة على الاستعانة بها ، بل ينهى عن التأمّن والتعاويز : « قلّ أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضرّ هل هنّ كاشفاتُ ضرّه » ؟ [الآية] . في ذلك يقول : « من علّق تيمّة فقد أشرك » . وفي نهيه يقول إذا كان الإيمان بالعجائب من علامات النبوة فإنه لا يبقى لإثبات الحقيقة وعلو الكعب في الدين سوى خرق النواميس الطبيعية التي سنّها الله .

أما الرقي التي تمارسها بعض النسوة فهي دخيلة ، ووسيلة للكسب ، وحيلة

ينكرها المؤمنون ، كما ينكرون النذور التي يؤدّيها الساذجون . « وإن يَمَسَّكَ الله بضرٍّ فلا كاشف له إلاّ هو » [الآية] . « قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض » [الآية] وقد قال الرسول : « لا يُسْتَغاثُ بي . وإنما يُسْتَغاثُ بالله » .

اختفاؤه :

في اختفائه روايات كثيرة . منها أنه لما علم بدنوّ الأجل جمع القضاة والعلماء والفقهاء والأمراء والقادة في قصره — مثلما جمع المسيح تلاميذه على العشاء « الرباني » — وأوصاهم بالطاعة وبمواالات جماعته ، مستحلفاً إياهم « بحق محمد رسول الله » وأنه خرج ليلة الاثنين ، في السابع والعشرين من شهر شوال سنة ٤١١ هـ . وحصل في ذلك اليوم كسوف الشمس — شبيه بما حصل عند صلب المسيح — ترجّحه إلى شرق حلوان ، ومعه رَكايبان ، أعادهما إلى القاهرة . ومضى .

وبعد ثلاثة أيام من انتظار عودته ، وقد تعودوا منه مثل هذا الغياب ، خرجت حاشيته إلى دير القصر والمكان المسمى « سلوان » . للبحث عنه . فوجدوا في ظاهر الجبل حماره الأشهب . ثم تبعوا الأثر ، حتى انتهوا إلى البركة والمقصة شرق « حلوان » . فوجدوا عندها ثيابه ، وهي مزرّة ، لم تُحسّل أزارها .

« المقرّزي » يقول إنه « فُقِدَ » ؛ هكذا : « فلما كان الليلتين بقيتا من شوال فُقدَ الحاكم . وقيل . . . » ثم يبنى اتهام أخته ستّ الملك بقتله ، قائلاً إن ذلك « جاءنا من كلام المشاركة » . . كما ينفيه في تاريخه « يحيى بن سعيد الأنطاكي » . أما أبو المحاسن بكتابه « النجوم الزاهرة » فيقول إنها دبّرت قتله « لأنه اتهمها في أخلاقها » . وكان يبدى سخطه عليها وكرهه لها ، فانتقم من . هكذا يكتنف الغموض حياة الحاكم ونهايتها . أما ما يؤمن به أتباعه وما ورد عن تلك النهاية فإننا نكتفي منه بما ورد في الرسالة ٧٣ :

نقول عن غيبة الحاكم بعد « التجلّي » : إنه « احتجب بنوره عن خلقه ،

فلم يُقْتَفَ له أثر ، واسترَ لغيبته وليُّه وصفيُّه (أى حمزة) ، وخلَفَ دعاةً .

وفي الرسالة ٧٦ يُنسَب إليه القول التالى :

« . . . واعلموا أَنَّ غيبتى عنكم غيبة امتحان لكم ولجميع الأديان ، فمن وفى منكم بما وُثِّقَ عليه ، ولم ينكص على عقبيِّه ، فسأوتيهِ أَجرًا عظيمًا » .

ويقول « السجلّ المعلق » بعد غيبته إِنَّ من دلائل غضبه عليهم غيابهُ عنهم . وإنهم بالتوبة والتوسل بالصفح والمغفرة « قد ينالون غفرانه » . وهاهى مقطعات من صلاة الغفران :

صلاة :

« ها أَنَا يا إلهى متوجِّهٌ إليك ، متكلٌّ فى النجاة عليك ، نجى يا إلهى من الغفلة عن الحق القاصد ، والاشتغال بالغرور البائد ، إليك هربتُ من ذنوبى ، وأملتُك لكشف كروى . وسرَّ عيوبى ، فامسُحْ علىّ برضاك . وأعني على ولاك ، والبراءة من أعداك . لك زيارتى ، وإليك معنى إشارتى ، فتصدَّقْ علىّ بنظرة منك تُحيى ، وتعطفُ بغيرنى ، ورضىَّ يستجيبنى . أنت صاحب العاجلة ، وإليك حُكْمُ الآجلة ، مَنْ طلب من الدنيا أعطيتَه ، ومَنْ طلب من الآخرة دلَّلتَه وهديتَه . سماءُ مجدِكَ مُطلَّةٌ ، وسحابُ جودِكَ مُستَهَلَّةٌ . أنت المُغْنى من كلِّ قِلَّةٍ ، والشافى من كلِّ عِلَّةٍ ، وأنا عبدُك اللائذُ بِحَرَمِكَ ، الشاكرُ لِنِعَمِكَ ، المستقيلُ من نِقَمِكَ ، المستجيرُ بك فى الدنيا من الحيرة والفقْر ، وفى الآخرة من عذاب القبر . احفظنى من فتنة الدجالين ، ومن غرور الغاوين ، ومن بئسَ كلِّ شيطانٍ ماردٍ رجم ، وهبْ لى النصرَ والغلبة على شهوات نفسى ، وخباثتِ وساوسها وشرورها . إنك حميدٌ مجيد ، جوادٌ كريم . تتجاوزُ عما مضى . وأعفُ عنا . واغفر لنا ذنوبنا . وبدلْ سيئاتنا بعبدك الصادق ، وإحسانك القديم ، يا ولىّ الصالحين ، وغاية الطالبين ، وأنسَ العارفين ، ورجاءَ الموحدين . بك اهتدينا ، وبنورك أبصرنا ، وعليك اتكلنا ، إنك أهلُ التقوى ، وربُّ المغفرة ، لك الحمد على ما مننت يا مولانا . وإنك نعمَ النصيرُ المعين » .

تاريخ « التوحيد »

يبدأ هذا التاريخ سنة ٤٠٨ هـ ، وهي سنة « الكشف » أى السنة الأولى لظهور حمزة بالدعوة . لذلك نجد رسائل المذهب مؤرخة بسنين تسمى « سنى حمزة » ، لا الحاكم . هكذا فى آخر بعضها : « كُتِبَتْ فى شهر كذا . . . من سنة كذا . . . من سى عبد مولانا جلّ ذكره وملوكه حمزة بن على بن أحمد هادى المستجيبين . . . إلخ » . أو هكذا ، مثلاً ، فى الرسالة ١٦ : « رُفِعَتْ نسختها إلى الحضرة اللاهوتية فى شهر ربيع الآخر الثانى من سنة عبد مولانا وملوكه حمزة . . . إلخ » . وهى سنة ٤١٠ هـ ، السنة الثانية من سنى حمزة . لأن السنة ٤٠٩ غير محسوبة من سنى حمزة إذ أنه لم يمارس سلطته فيها . فقد كان غائباً . كما سنوضح فيما بعد .

كانت السنة الأولى ابتداءً من شهر صفر ، ورد ذكرها أولاً فى أولى رسائل حمزة ، ثمّ أرخت بموجها رسائل « الحكمة » أو « المعلوم الشريف » تبعاً ، حيث يُذكر التاريخ .

فى تلك السنة أعلن حمزة ألوهية الحاكم ، بعدما ظهر من حماقات نشكين « الدرّزى » ، الداعى الذى نُسب الدروز إلى اسمه فى ديار الشام . مما يدلّ على أن الدعوة بدأت سرّيةً قبل ٤٠٨ هـ . فى السنة التى سبقتها ، على ما أرجح ، أو ربما قبلها ، إذ بُثّ الدعاة سرّاً ، تمهيداً لإعلانها فيما بعد . فكان السبب فى التعجيل بها الفضائح المشوبة إلى نشكين وسوء تصرّفه واستعداله للسلطة منافسةً لحمزة وتمرداً عليه .

ظهر حمزة بالدعوة فى خلال ٤٠٨ و ٤١٠ و ٤١١ هـ . أما سنة ٤٠٩ فقد استُثْنِيَتْ من سنى حمزة . وبعد غيبة الحاكم عند آخر سنة ٤١١ احتفى حمزة فى أوائل ٤١٢ من وجه نقمة طوائف المسلمين عليه .

كان نشكين من الدعاة الأوّل سنة ٤٠٧ على الأرجح ؛ قبل إعلان الدعوة .

ثم إنه في سنة ٤٠٨ دعا نشككين « البرذعي » ، أباً منصور ، إلى التوحيد .
 ذكر ذلك ورد في رسالة حمزة ١٦ : « وأما البرذعي فأنا أرسلت إليه ودعوته
 إلى التوحيد . . . فأقسم أنه لا يدخل في هذا المذهب إلا بتوقيع من مولانا . فلما
 أرسل إليه الدّرزي رسوله وبه ثلاثة دنانير وأوعده بالمركوب والخلاص ، مضى
 إلى عنده ، وفتح له أبواب البلايا والكفر » .

يُستدلّ بما نقلت أن الدّرزي بعد استجابته على يد الحبال أصبح رئيس الدعاة
 في ديار الشام ثم انقلب على حمزة الذي يقول فيه : « حذّرتكم من نشككين
 الدّرزي والبرذعي وأصحابهما . وما كانوا فيه من الأفعال الردية » . وكان نشككين
 ينافسه وينازعه على السلطة . فقد تنكر لإمامة حمزة ، فوجه إليه حمزة التنبيه
 التالي عند نهاية سنة ٤٠٨ هـ :

... « إن كنت تدّعي الإيمان فأقرّ لي بالإمامة كما أقررت في الأول . .
 من غير أن تلعن أحداً . . . لأن اللعنة لا تزيد في الدين ، ولا تنقص منه .
 وخاطب الناس بالتي هي أحسن . فإن مولانا يحبّ المحسنين . فإذا فعلت مالت
 قلوب العالم إلينا . . . »

كانت سنة حمزة حمالة بالدعوة ، والارتدادات ، ومكافحة المرتدين بعد
 استجابتهم . . ومواجهة المقاومين للدعوة . ونجد حمزة يقول بالرسالة ١٩ :

« - إلى معاند ومن معه في الاعتقال . المصابين من عالم الضلال ،
 أما بعد فقد وصل إلى رقعة من أبي القاسم مبارك (أحد الدعاة) أنه التقى ولد معاند
 وغلّامه ، ومعهما رقعة بالسؤال عنى : وتذكّروا للحضرة اللاهوتية التي لا تحتاج
 إلى تذكرة . ولا تخفى عليها مخبّرة » . . . ثم يشكو بها حمزة من استعجاب
 ثم نكت « مثل على بن أحمد الحبال الذي كان مأذوناً لي . وعلى يده استعجاب
 نشككين الدّرزي . . . وأما أنت . يا معاند . وأبا منصور البرذعي ، وأبا جعفر
 الحبال . فما منكم أحد إلا وقد دعوته إلى التوحيد . فأبيتم ذلك ، إلا أبو جعفر
 الحبال فإنه كان قد أجاب إلى مبارك الداعي أيده المولى . والذي منعه ولده على . . .
 وأما أنتم فليتمّ إلى الحطام الفانية . . . »

ويروى بالرسالة ١٠ كيف انتصرت فئة قليلة من الموحدين على جيوش كثيرة في معركة المسجد ومعركة الدار . . .

ذلك أن نشتكين كان يسعى ليشلّ محل حمزة مستعيناً بالبرذعى وغيره من الدعاة الذين انقلبوا معه على حمزة . وضرب السكة وزيف الدنانير والدراهم في سبيل الوصول إلى السلطة . فردّد فيهم حمزة الآية :

« ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً . أفأنت تكفره الناس حتى يكونوا مؤمنين وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله » . . . [الآية ٩٩ و ١٠٠ سورة يونس] .

وقال إن الخطريس « هو نشتكين الدرزي الذي تغطرس على الكشف » . . . وإنه « الضد الذي سمعتم بأنه يظاير من تحت ثوب الإمام . ويدّعى منزلته . . . كان من جملة المستجيبين ، حتى تغطرس وتجبر وخرج على إمامه حمزة . . . وادّعى منزلته حسداً له . . . وتسمى روحه (أى ستمى نفسه . بلهجة مصر حتى اليوم) في الأوّل " سيف الإيمان " . . . وزاد في عصيانه ، فقال أنا سيّد الهادين . . . وغرّره ما كان يضرّبه من زغلّ الدنانير والدراهم . . . وأبى أن يسجد لمن نصّبه المولى وجعله خليفته في دينه وأمينه على سرّه وهادياً إلى توحيده وعبادته » .

في الشهر نفسه ، ربيع الآخر « الثاني » (سنة ٤١٠ هـ) وجه رسالة ثانية إلى الموحدين [الرسالة ١٦] جاء فيها :

« . . . وأوّل ما حذرتكم من نشتكين الدرزي والبرذعى وأصحابهما . . . اعلموا بأن الدرزي والبرذعى نطقاً بغير معرفة ولا علم ، وعملاً بغير وجه مولانا جلّ ذكره ، وأعليا البناء بغير أساس ، وما أصاب أحدهما (الدرزي) ما أصابه إلا باستحقاق وعدل من المولى سبحانه على يدي . . . وكان قد سألتى مراراً بكثرة أن أدفع إليه شيئاً من كُتب التوحيد مما ألّفته . فلم أفعل . وذلك مما تفرّست فيه من العاقبة الرديّة . وقد قال صاحب الشريعة : " احذروا من فراسة المؤمن فيكم ، فإنه ينظر بنور الله " [حديث] . : فنظرت إليه بنور مولانا ولم أفعل » .

أَسَلَّمَهُ شَيْئًا مَّا طَلَبَهُ . فَرَدَّتْ بِالْكِبْرِيَاءِ وَقَالَ : " أَنَا خَيْرُ مَنْهُ وَأَقْوَى وَأَعْلَى " .
ولم يعلم أن الغالب مَنْ أَعَانَهُ المولى جلَّ ذِكْرُهُ .

قتل نشتكين :

كان نشتكين قد أثار نقمة أهل السنة بما وجَّهه من الشتائم ضدَّ أعداء عليّ رضي الله عنه ، كما أثار نقمة الموحِّدين . وكتب عنه إسماعيل التميمي (النفس) في كتابه « اليونان » : أن " الدرزي تكبَّر فسقط إلى الحضيض لأن الكبرياء أصل المآثم . . . إياكم وهذا الشقي " . لكونه عصى دعوة المولى وخالفه . . واعتقد الحلول [مذهب المنصور الخلاج الصوفي] . . . إلخ .

في شهر شعبان الثاني . أي السنة الثانية لدعوة حمزة وهي ٤١٠ هـ . وجَّه حمزة إلى أعوان نشتكين وهم في السجن ، الرسالة ١٩ التي سبق ذكرها واصفًا بها تعاليم نشتكين بأنها « الطوارق . والبواثق » لأنه أدخل بها تحريفًا وتشويهًا على رسائل حمزة بقصد التنفير والاستعداد . كما فعل الداعي المرتد الآخر سكين ، وابن البربرية « المعتوه الذي ادَّعى منزلة الإمام المسيح » ، و« لاحق » الذي استوجب النعمة بالتحريف وزخرفة الآيات المكذوبة . و« مَحَلَّأ » . و« مصعب » ، وغيرهم .

[تنبيه : — قلنا شعبان الثاني أي سنة حمزة الثانية وهي ٤١٠ هـ . وكانت السنة الأولى ٤٠٨ هـ . أما سنة ٤٠٩ هـ فلا تحسب من سبي حمزة لأنه كان محتفيًا فيها . فالرسالة ١٨ مئلا مؤرخة في ربيع الأول الثاني . أي سنة حمزة الثانية ٤١٠ هـ . والرسالة ٣٦ تاريخها محرَّم الثالث . أي سنة حمزة الثالثة ٤١١ هـ . وهكذا كانت تؤرَّخ الرسائل التي تحمل تاريخًا] .

قال حمزة في الرسالة نفسها إن الإمامة لا يشترك فيها اثنان في وقت واحد . فإنها نور كليٌّ لا يقبل الانقسام ، وأشار إلى القصاص الذي أنزل بالمرتدين أمثال علي بن أحمد الحبَّال ، والعجمي ، والأحول ، وخطلخ ماجان . وغيرهم .

بها يعلن حمزة نبأ قتلهم وقتل نشتكين الدرزي سنة ٤١٠ هـ ، ويعدِّ معاند ، الذي وجَّهَتْ إليه الرسالة . بأن يذكره ورفاقه في السجن « للحضرة

اللاهوتية « من أجل العفو عنهم . « ففي هذا إجابةٌ سؤلكم . فأبشروا واعلموا أن الفرج قريب » .

هذه هي الرسائل التي يذكر حمزة فيها نشتكين . أمّا حيث لا يذكره بالاسم ، فإنه يشير إليه بنعوت مختلفة : منها « الضد » و « الشيطان » و « الخصم » و « العجل » . ففي الرسالة ٩ يقول :

« فلا تكونوا ممن قالوا سمعنا وأطعنا . وشربوا في قلوبهم ” العجل “ بكفرهم . والعجل فهو ضدّ وليّ الزمان . . . سميّ الضدّ عجلاً لأنه ناقص العقل عجول في أمره ، له خوار » — إشارة إلى الآية ٥٨ سورة طه : « فأخرجَ لهم عجلاً جسداً له خوار » .

غيبة حمزة :

بعد أحداث السنة الأولى ، ٤٠٨ هـ ، اختفى حمزة فلم نقف له على ذكر عتسّى مدى سنة ٤٠٩ التي وُصِفَتْ في مواضع كثيرة من الرسائل بأنها سنة المحنة أو الامتحان والعذاب ، لم يمارس فيها حمزة سُلْطَنَه . فقالوا إنّ القصد من الغيبة امتحان الموحّدين ، كما ذُكِرَ : « إنّه يمتحن الخلق بغيبته في التاسعة » ، والمحنة هي غيابه الذي عاقبهم به ، وقصّر اتصالاته في أثنائها على أعوانه من الدعاة ، فكان يكتب لهم ويبثّ الدعوة سرّاً إلى مذهبه الجديد في حذر شديد لم تُنْقَلْ إلينا أسبابه ، ولعلّ الغيبة تدبير سياسي .

وصفها حمزه بقوله [الرسالة ١٦] : — « وقد سمعتم ما تلى عليكم في مجالس الحكمة من امتحان الإمام ، وخفيّته ، ونُقْلَتِهِ من موضع إلى موضع نُقْلَةً الخفية . لا نقلة التغير والغيبة ... وهي محنة عاقبكم بها المولى . . . لأنه سبحانه أنعم عليكم ما لم يُنعم على أحد في الأدوار . . . وأعزّكم في وقت عبده الهادي . لم يُعزّ أحدًا في الأقطار » .

لم يقصّر اتصالاته على المراسلة . بل جاوزها إلى انتقاء دعائه الذين وكل إليهم نشر العقيدة . فإننا ، مثلاً ، نجد في الرسالة ٢١ أنه في شهر

شَوَّال قُلْدُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ وَهْبٍ الْقُرَشِيَّ الدَّاعِي فَرَفَعَ دَرَجَتَهُ إِلَى مَنْزِلَةِ «الكَلِمَةِ» بِقَوْلِهِ :

«فَرَفَعْتُ دَرَجَتَكَ وَأَضْفَعْتُ إِلَى مَنْزِلَتِكَ ، وَهِيَ الْمَنْزِلَةُ الَّتِي كَانَتْ لِلشَّيْخِ "الْمُرْتَضَى" قَدَّسَ الْمَوْلَى رُوحَهُ ، وَأَنْتَ تَسْلِمَتَ عِلْمُومَهُ وَ"حَدَّاهُ" . وَوَارِيَتَهُ فِي تَرْبَتِهِ . وَقَدْ سَلَّمْتُ إِلَيْكَ جَمِيعَ كُتُبِهِ التَّوْحِيدِيَّةِ . . . لَا فَوْقَكَ أَحَدٌ أَعْلَى مِنْكَ غَيْرَ صَفْوَةِ الْمُسْتَجِيبِينَ (النَّفْس) الشَّيْخِ "الْمُحْتَجِبِي" ، أَخْذُوخِ الْأَوَانِ ، وَإِدْرِيسِ الزَّمَانِ : هَرَمَسِ الْهَرَامِسَةَ . أَخِي وَصَهْرِي ، أَبِي إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُحَمَّدٍ التَّمِيمِيِّ الدَّاعِي . . . فَاسْتَخِرْ مَوْلَانَا سُبْحَانَهُ . وَاخْدُمْ حَقَّ مَا يَجِبُ عَلَيْكَ مِنْ مَذْهَبِ مَوْلَانَا ، وَالطُّفَّ بِالْدَّعَاةِ وَجَمِيعِ الْمُوَحِّدِينَ ، وَأَمْرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَانْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَامْتَحِشَّهُمْ عَلَى الْخِلَافَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَأَسْرِ النِّقْبَاءَ بِمَلَاذِمَةِ خِدْمَتِكَ ، وَرَفَعْ مَا يَكُونُ مِنَ الْأَخْبَارِ إِلَيْكَ ، وَمَا يَتَجَدَّدُ بِالْقَاهِرَةِ وَأَخْبَارَهَا وَ . . . فَمِنْ رَأْيَتَ طَرِيقَتَهُ مُسْتَقِيمًا ، فَأَحْسِنْ إِلَيْهِ . وَقَرَّبَهُ مِنْكَ ، وَعَرَفْنِي حَالَهُ» . . .

وَكَانَ حِمْرَةً قَدْ قُلْدَ «الْمُحْتَجِبِي» الْمَذْكُورَ . قَبْلَ هَذَا ، كَمَا يُسْتَبَدَّلُ مِنَ النَّصِّ ، وَإِنْ لَمْ يُذَكَّرْ التَّارِيخُ فِي «سَجَلِ الْمُحْتَجِبِي» [الرَّمَالَةُ ٢٠] إِذْ قَالَ فِيهِ : «فَجَعَلْتُكَ خَلِيفَتِي» . . . وَجَعَلْتُ لَكَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ عَلَى سَائِرِ الْحُدُودِ ، تَوَلَّى مِنْ شِئْتِ . وَتَعَزَّلَ مَنْ شِئْتَ . . . مِنْ خَالَفَكَ فَقَدْ خَالَفَنِي ، وَمَنْ أَطَاعَكَ فَقَدْ أَطَاعَنِي» . . .

يَبْدُو أَنَّ حِمْرَةً لَمْ يَكُنْ فِي الْقَاهِرَةِ حَيْثُ يَقِيمُ الْحَاكِمُ ، بَلْ كَانَ مُخْتَفِيًا فِي مَكَانٍ آخَرَ ، فَإِنَّهُ يَقُولُ بِالرَّسَالَةِ ١٩ : «وَرَسُلِي وَاصِلَةً بِالرَّسَائِلِ وَالْوَثَائِقِ إِلَى الْخِصْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ» .

كَمَا يَبْدُو أَنَّهُ كَانَ حَازِرًا تَأْيِيدَ الْحَاكِمِ . إِذْ أَنَّهُ يَقُولُ : «وَالْآنَ فَتَأْيِيدُ مَوْلَانَا سُبْحَانَهُ وَاصِلٌ إِلَيَّ . وَرَحِمَتُهُ وَأَفْضَالُهُ ، ظَاهِرَةٌ وَبَاطِنَةٌ ، عَلَى . وَجَمِيعِ أَصْحَابِ الْمُسْتَجِيبِينَ عَزِيزُونَ مَكْرَمُونَ . وَفِي الشَّرْطَةِ وَالْوَلَايَةِ وَأَصْحَابِ "السَّيَارَاتِ" مُقْضِيُو الْحَوَائِجِ دُونَ سَائِرِ الْعَالَمِينَ» .

وكان يُصدر الأوامر من مُعْتَكَفِهِ . كالأمر الذى أصدره إلى القاضى أحمد بن العوام [الرسالة ٢٨] يوبّخه على تسمية نفسه « قاضى القضاة » .
ويعنّيه به من النظر فى قضايا الموحدين . قائلاً : « إياك أن تنظر لموحد فى حُكْمٍ . . . أرسله إلى لأحكم أنا عليه بحكم الشريعة الروحانية التى أطلقها أمير المؤمنين » . مما يدلّ على أنه كان للموحدين قانون خاص ، كقانون الأحوال الشخصية ، فى ذلك الحين . وقد يكون هذا الأمر كُتِبَ عند نهاية اعتكافه أو بعدها .

عودته :

عاد حمزة فى السنة التالية (٤١٠ هـ) بقوة ونشاط ، يشدّ أزر أتباعه ، بما خصّه الحاكم به من التأييد . وفوّض إليه من أمور الرعية . وأطلق يده فى شؤون تدبير الملك فإنه يقول بعزم بالغ [الرسالة ٣٣] : « . . . أنا صاحب سرّه وأماناته . أنا . . . أنا مسيح الأمم ، وبنّى إفاضة النعم . أنا . . . فالويل كلّ الويل لمن حاد عن طاعتي . . . فقد أوحى إلى سبحانه أنه لا بدّ من إنجاز الوعد المحتوم . وقتل كلّ كافر ظلوم . . . وأملك بسيفي جميع البلاد . . . فن آمن قبل ظهور الوعد ، نال المفاز مع الأبرار ، وحلّ فى دار النعيم والقرار . . . فاصبروا على الامتحان . . . وصونوا ” الحكمة “ عن غير أهلها . . . اقبلوا ما أمرتكم ، وانتهوا عما نهيتكم . وارثقوا ما وعدتكم . . . » .

ويفسّر الخفية والظهور قائلاً [الرسالة ١٨] : « لما خفى أخفيناه ، ولما ظهر أظهرناه » . . . فالملو « ستر توحيدّه وقت شاء . وأظهره كما شاء . . . إلى أن بلغ الكتاب أجله ، وجاء الوعد العلوم ، وظهر المكتوم . . . فأظهرناه عند إظهاره ، وسترناه عند استتاره » .

ثم يقول [الرسالة ١٦] : « . . . ومولانا جل ذكره لا يستر عبده الهادى إلى عبادته عن عبده أياماً يسيرة (سنة ٤٠٩) إلا لما يريد من إظهاره على

سائر العبيد (سنة ٤١٠) ويؤيده بالقدرة والتأييد . وهي السنة التي أظهر فيها بطشه بقتل الدرزي والبرذعى وعدد كبير من أعوانهما . فقد أطلق الحاكم يده فى الحكم حتى قال : « الويل كل الويل لمن حاد عن طاعى » .

منذ تلك السنة (٤١٠) أخذ ثانى الحدود (النفس) يوجه رسائله فى نشر الدعوة ، أشهرها كتابه « تقسيم العلوم » . وتمّ تقليد المقتنى بهاء الدين ، أبى الحسن على بن أحمد السدوقى [الرسالة ٢٢] . وتقليد ، أو تعيين ، سائر الحدود والدعاة . كما نستنتج . لأنه ليس من المعقول تعيين خامس الحدود ، بهاء الدين ، قبل رابعهم الذى لم يرد فى كتب الحكمة نبأ تقليده فى سجل خاص ، بل ورد فى تقليد المقتنى أنه الرابع ، الشيخ « المصطفى » ، حيث يقول الكتاب : « فجعلناك الجناح الأيسر ، إذ كان الأيمن (المصطفى) قد تقدّمك ، وهو سلامة بن عبد الوهاب » أبو الخير السامري . وهذا مما يجعلنا نقول إنّ ما لدينا من الرسائل قليل من كثير ، بعضه لا شك مفقود ، وبعضه ما لا سبيل إلى الحصول عليه لإكمال النواقص فى هذا التاريخ .

الختام :

كان ذلك سنة ٤١١ هـ ، وهي السنة الرابعة لظهور حمزة بالدعوة ، الثالثة من تاريخه الدينى أى من الكشف أو تاريخ نشاطه الظاهر وممارسته السلطة . لم يعلن فيها عن نشاط كبير . فيها اختفى الحاكم فى ٢٧ شوال . وبعد اختفائه أو غيبته وجه حمزة منشوره التاريخى المسمى « السجل » الذى وجد معلقاً على المشاهد فى غيبة مولانا الإمام الحاكم ، المؤرخ فى « شهر ذى القعدة سنة إحدى عشرة وأربع مائة » . وقد يكون أولى رسائله فى تلك السنة . وهي الرسالة ١ من كتاب « السّير » ، أوّل كتب « الحكمة » .

علّق هذا المنشور فى المساجد للتعميم ، فقد جاء فى نهايته : « حرام حرام على من لا ينسخه ويقرؤه على التّوايين . . . حرام حرام على من قدر على نسخه وقصّر » .

دعا فيه إلى الثبات على الإيمان . واستهله بأسلوب غير باطنى ، وعبارات جليلة مختلفة عن رسائل الدعوة السرية . نورد بعضها للدلالة على اختلاف الأسلوب فى المخاطبة الظاهرة ، الموجهة إلى « الكافة » .

بدأ المنشور بعبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » . ودعا إلى التوبة إلى الله ، وإلى « خليفته فى أرضه ، وأمينه على خلقه أمير المؤمنين ... وصلى الله على سيد المرسلين محمد المبعوث بالقرآن إلى الخلق أجمعين . . . وقد علمتم معاشر الكافة أن جميع ما ورثه الله تعالى لوليه وخليفته فى أرضه أمير المؤمنين فبعثتم فى فضل أمير المؤمنين سلام الله عليه ، رغداً . . . من نعمة الباطنة عليكم إحيائه لسنن الإسلام والإيمان التى هى الدين عند الله . . . وبني الجوامع . . . وعمر المساجد . . . وأقام الصلاة فى أوقاتها ، والزكاة فى حقها وواجباتها ، وأقام الحج والجهاد ، وعمر بيت الله الحرام ، وأقام دعائم الإسلام وفتح لكم أبواب دعوته ، وأيدكم بما خصه الله من حكمته ، ليهديكم بها إلى رحمته ، ويحكمكم بها على طاعته وطاعة رسوله وأوليائه عليهم السلام فشنيتهم . . . وكفرتهم . . . ونبذتهم . . . فلم يجبركم . . . وأغلق باب دعوته . . . وفتح لكم دار علم . . . فرفضتموه وأعرضتم . . . ومال بكم الهوى . . . ورفضتم العلم وأظهركم الجهل . . . إن الإسلام قد شذلكم تحت طاعة الله ، وطاعة رسوله . ووليته أمير المؤمنين و . . .

« . . . لذلك خرج من أوساطكم . . . فن دلائل غضب الإمام لإغلاق باب دعوته ، ورفع مجالس حكمته . . . قال الله : " وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى " [الآية ١٨٦ سورة البقرة] . . . إن وقفتم على برّاح من الأرض يكون أول طريق سلكها أمير المؤمنين وقت أن استتر نضو أعينكم . . . فتوبوا إليه . وتوسلوا بالصفح عنكم . وأن يرحمكم بعودة وليته إليكم . . . فإذا أطلت عليكم الرحمة خرج ولى الله

إمامكم راضياً عنكم ، ظاهراً في أوساطكم . . . »
 وأنّه يسي المنشور هكذا :

« كتب مولى دولة أمير المؤمنين سلام الله عليه في شهر ذى القعدة ٤١١ ،
 وصلى الله على محمد سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، وسلم على آله الطاهرين ،
 وحبيبنا الله ونعم الوكيل . »

هنالك رسائل غير مؤرخة قد تكون كتبت بعد هذا السجل ؛ فإن حمزة ظلّ على اتصال سريّ بدعائه ، واعدّاً بقرب عودة الحاكم كما تدلّ إحدى تلك الرسائل التي كتبت بعيد الغيبة ، وهي الرسالة ٣٥ . كتبها حمزة ، وحملها أبو يعلى إلى أهل جزيرة الشام ، بعد بضعة شهور من غيبة الحاكم ، في آخر ٤١١ . ذكرهم بها ما جرى لولّى العهد الأمير عبد الرحيم ابن إلياس بعد إشراكه « في الخطبة على المنبر ، وفي السكّة على الدينار » . وكان الحاكم سنة ٤٠٤ أوصى له بولاية العهد . وهو ابن عمّه ، بدلاً من ابنه « الظاهر » ، خلافاً لتقاليد الإمامة الفاطمية التي تقضى بانتقالها من الأب إلى الابن ، ثم غضب الحاكم عليه فأمر بإحضاره من الشام فأحضره بهاء الدين في قفص من حديد بعدما كان الحاكم قد عينه والياً في دمشق ، فأخذ يدعى القوابة ، ويظلم ويسفك الدماء ويحلل الحرام . لذلك كان غضب الحاكم عليه .

ولما تولى الخلافة « الظاهر » أرسلت ستّ الملك من قتل عبد الرحيم في سجنه .

عن هذا الأمير تقول الرسالة ٤٤ [« رسالة بنى أبي حمزة »] إنه كان « ذامال ، وملّك . ورجال ، وضبّنة ، ورهط ، وعبيد ، وماليك . . . فلم يمنع منه سلطانه ولا ماله ولا رجاله . . . فأخذ أخذ العبد الدليل . . . والعلة في ذلك إنكاره لمبدعه ، وجحوده للمنعم عليه . . . »

كاتب هذه الرسالة بهاء الدين ، وإن كان أسلوبها كأسلوب رسالة « الغيبة » ومطلعها . كقطع تلك . خالياً من تمجيد حمزة . دليلنا على ذلك

ما ألحقَ بآخِرِها من « الشكر لقائم الزمان » . وقد نصّت « الغيبة » على ما يلي :

« . . . وهى رسالة التحذير بعد الغيبة بشهور عدّة . . . توكلت على مولانا . . . المنزّه عن العدم إذا استتر . . . بتقدير أحكامه امتنّ على خلقه بوجود صورته من جنس صورهم . . . فأُنِسَّت العقول إلى ظاهر صورته . واستدرجهم إلى معرفته ، بلطف حكمته » .

وفيهما من التحذير والتنبيه والتثبيت على الإيمان ما يحسن إيراد بعضه لما فيه من الحكم :

« إن حطام الدنيا منالهُ سهّل . ولكنه مضمحلّ فان ، واكتساب الدّين صعب ، ولكنه دائمٌ باق . . . معشر الإخوان ، من قلّت ثقتُهُ بالله ، وخشى من بشرٍ مثله : أوقعهُ باريه فيما منه فزع وحذر . . . معشر الإخوان ، إياكم النّفاق ، فإنه بابُ التشتّت والافتراق . . . معشر الإخوان ، من خشى بشراً مثله سلّط عليه . . . لا تصحّ الديانة إلا عند الامتحان .

ففى وقت السلامة والعافية يكون العالم متساوياً ، لا فاضل ولا مفضول ، وإنما تُنال الدرجات ، وارتقاء المنازل المرتفعات ، بالصبر فى وقت الشدّة . . . فمن صبر على المكاره نال المسرات . . . معشر الإخوان ، الحذر الحذر أن تكونوا ممن يخشون على تمزيق " أممّصتهم " (أى موت الجسد الذى تنقسمه الروح فهو « قسيصها » . وهو « الصورة ») وغيبّة صورهم . . . ارضوا وسلّموا فى السراء والضراء . . . وأقايوا الاعتراض فيما يظهر لكم من خير وشرّ ، وإحسان وضرّ . يخفّف عنكم الحنة ، ويكشف عنكم الغمة . فليس بينكم وبين عالم الجهل فرق إلا الرضى والتسليم . والرضى والتسليم غاية العلم والتعليم . . . من انتسب إلى قوم لا يأتى بأفعال أضدادهم . . . واعلموا ، معشر الإخوان ، أن الله غنى عن عباداتكم ، منزّه عن دياناتكم . لا يزيد فى ملكه طاعة من أطاعه . ولا ينقص من ملكه معصية من عصاه . وإنما هى أعمالكم تُردّ إليكم ، وما أتاكم من صعوبة زمانكم فهو من سوء أعمالكم . . .

« معشر الإخوان ، تيقنوا قبل ظهور الصورة . فكلّ عبادة عند ظهورها مجبورة . . . »

« معشر الإخوان ، قد قرب إليكم ما تباعد عنكم . . . تَوَقَّوا الظلمة عند طلوع الفجر ، فإنها أشدّ الليل سواداً . . . تَوَقَّوا المحنة في آخر الفترة ، فإنّ في آخر الفترة يكون ثوران القُدرة . . . »

« معشر الإخوان ، لا يَكُنْ مَشْكُكُمْ مِثْلَ مسافرٍ من بلدةٍ يريد وطنه ، تَوَانَسَى في الحفظ من زاده ، ففرغ زاده في الطريق . فرام الرجوع إلى البلدة التي خرج منها ، فلم يقدر . ورام الوصول إلى وطنه ، فلم يستطع . . . »
 « معشر الإخوان ، احذروا غيرةَ الشيطان . فإن الضدّ يظهر من بيت الولي ، ظاهره ديانة ، وباطنه خيانة . . . »

« معشر الإخوان ، إنّ أعلى ما يكون الباطل ، يأتي عليه الحقّ فيُخسِده . إنّ عبد مولانا ومملوكه قائم الزمان قد أوثاكم الحجّة ، وأرشدكم إلى المحجّة فتيقنوا من رقدتكم ، وأيقوا من غفلتكم . . . حينئذٍ توفون أجوركم وأنتم لا تُظلمون » . . . »

حمزة

« العقل » أول « الحدود » . ظهر في جميع الأدوار بأسماء مختلفة :

- ١ - في دور آدم كان اسمه شطنيل .
- ٢ - في دور نوح كان اسمه فيثاغورس .
- ٣ - في دور إبراهيم كان اسمه داود
- ٤ - في دور موسى كان اسمه شعيب
- ٥ - في دور عيسى كان اسمه المسيح يسوع ، صاحب الإنجيل ، الذي ظهر على تلاميذه . (سندكره في فصل خاص) .
- ٦ - في دور محمد كان اسمه سلمان الفارسي
- ٧ - في دور الحاكم كان اسمه حمزة ، أى أنه كان مشخصاً فيه ، ويجب الانتباه أن حمزة نفسه ، في رسائله يمجّد « العقل » ، كما في الرسالة ٣٠

بقوله : « سبحانه يا مُبْدِعَ العقل التام » . . .

كان حمزة فارسياً . وُلِدَ بمدينة زَوْزَنَ في خراسان من بلاد فارس سنة ٣٧٥ هـ . مساء الخميس في ٢٣ ربيع الأول . وهو اليوم (والتاريخ) الذى « ولد » فيه « الحاكم » بمصر . ولعلّ ذلك كان السبب في أن الموحّدين يقيمون الصلاة الأسبوعية مساء كل خميس . أى ليلة الجمعة . إذ أن الحساب القديم كان يُتَّبَعُ الليلَ النهارَ الذى يليه .

في العشرين من عمره في السنة العاشرة من خلافة الحاكم جاء إلى مصر ، وتبع الحاكم ، وصار يلقب ، بالفاطمى ، بعد ما كان « الزوزنى » ، ويشار إليه في رسائل « الحكمة » بعبارة « عبد مولانا ومملوكه » . ذُكِرَتْ أ كْثَرُ من مئة مرة .

تمّ على فارسيته تعابير دخيلة على أسلوب الإنشاء العربى . مع أنه كتب ببيان بليغ يغلب فيه السجع . فإننا نجد له في رسائله عبارات مثل « العلىّ

الأعلى» و«تعالى سلطانه علواً عالياً علياً» [الرسالة ١٧] . و«جل ثناؤه» و«جل اسمه» «الحاكم الحكيم» [الرسالة ٣٩] وتعايير فارسية مُدْخِلَة: مثل «هرمز» أو «هرمس الهرامسة» و«بارخُذاي» و«كرديو بكرديو» ، وحقّ ميزة بـتَرْدِيو . وهي على قلة ورودها لها دلالاتها .

بظهور حمزة بن عليّ بن أحمد بدأت الدعوة «الترجيديّة» : وبها بدأ تاريخ من يسدّون اليوم «الدروز» : سنة ٤٠٨ هجرية . فقد ورد في ختام «الكتاب المعروف بالنقض الخيّ» - ولعله أوّل كتب حمزة - كما يلي :

«رُفِعَ هذا الكتاب إلى الحضرة اللاهوتية في شهر صفر سنة ثمان وأربع مائة من الهجرة ، وهي أوّل سنّ ظهور عبد مولانا ومملوكه هادي المستجيبين المنتقم من المشركين بسيف مولانا جلّ ذكره ، لاشريك له ولا معبود سواه . وحسبنا مولانا وحده . قويل بها وصحّت .»

فإن حمزة قبل أن لُقِّبَ بالإمام سنة ٤٠٨ هـ كان قد أخذ يوفد دعائه ويوجّه رسائله سرّاً إلى البلدان الإسلامية وغير الإسلامية . استعداداً لإعلان الدعوة في تلك السنة التي فيها حدث السخط على نشكين الدّرّزي بعدما افترض أمره واشتدت النقمة على أعماله ، مما أدّى إلى فتور في بثّ الدعوة تلك السنة ، ومهّد للتخلص منه فيما بعد كما ذكرنا في الفصل السابق .

استغرق نشاط حمزة بدعوته الظاهرة ثلاث سنوات : هي ٤٠٨ و ٤١٠ و ٤١١ هـ . أما السنة ٤٠٩ فإنّها . كما سبق ذكرها ، كانت سنة استتار له ، زاول فيها اتصالاته سرّاً . وسمّيت سنة الامتحان والخفية . فقد كان ، بعلم الحاكم ، وبموافقته على الأرجح ، ينتقل في خلالها خفيةً . من موضع إلى آخر ، ربما تجنّباً لثورة الشعب عليه . أو استعداداً لظهور بقوة التنظيم والتحضير لسنة ٤١٠ التالية الحافلة بالأحداث العقائدية .

فإن الشعب كان يثور على كلّ انحراف عن السنّة . وفي ثورة سنة ٤٠٩ ، يقول أبو المحاسن بكتابه «النجوم الزاهرة» [ج ٤ صفحة ١٨٣] إن حسن

الأخرم . لما أعلن لأول مرة ألوهية الحاكم ثار عليه الناس ، ورفعوا شكواهم إلى القاضي أحمد بن العوام . وظلّوا يتعقبونه حتى قبضوا عليه وقتلوه . وحلّ محله تلك السنة الدّرزيّ الذي اضطرّ إلى الخروج من مصر إلى بلاد الشام حيث نشر دعوته .

بعد سنة ٤١١ هـ التي اختفى فيها الحاكم ثم اختفى بعده حمزة ، مرّت سنوات من الكتمان لم يظهر فيها حمزة . حتّى أزيح الستار قليلاً عن نشاطه ، برسائل أرسلت إلى سواه وذكر فيها ، أو وُجّهت إليه ، بعد قرابة عشرين سنة من غيابه . منها الرسالة ٧٩ التي كتبت على الأرجح سنة ٤٢٧ هـ . إذ تقول : « فقد أقمنا عليكم حجج الله من مدّة سبع عشرة سنة » ومنها الرسالة ٨٨ [« المواجهة »] التي يتبيّن منها أن حمزة كان لا يزال على اتصال سرّيّ بدعائه ، على الخصوص « بالمقتنى » بهاء الدين كاتب الرسالة وهو يبدوها « بالسلام على الإمام » موجّهًا إليه « عبيده الزائرين . . . رسل العبد الدليل » . ومنها الرسالة ٩٠ الموجهة « من المستقرّ بالخضرة الطاهرة الشريفة » . وبها يشجّعهم على احتمال الأذى والاضيق ويحثّهم على التمسك بالإيمان ويبيّن « بالاجتماع عند ظهور وليّ الحق . . . وقد شاعت أخباره . . . وتباشرت بها كافة الموحّدين . . . وهجست الليلة التي نحن فيها ننتظر الصباح . . . ولو أمكن لشرحنا ما هو أكثر » وردد الجواب [الرسالة ٩١] بشرى عودة الإمام : « فالحقّ قد ظهر إلى الإعلان ، واشتهر بظهور قائم الزمان ، بالبين الأقصى ، وقرب ما كان نائيًا . . . فلتكن الكلمة واجدة ، والألفة مجتمعة ، والمذاكرة دائمة »

غيبة حمزة هذه الثانية النهائية سميت غيبة الامتحان ، كما يقول بهاء الدين في « رسالة السّقر » [الرسالة ٦٨] مخاطبًا « الموحّدين المظلومين المدّبحين . . . المؤمنين الطاهرة المسلمين » ؛ وكما سميت في مواضع كثيرة من « المعلوم الشريف » أي كتب « الحكمة » . بقصد دعوة الموحّدين إلى الإيمان برجوع حمزة . وإلى « طاعة وليّ الحق الإمام القائم المنتظر » كما تقول الرسالة ٦٨ التي كتبت بعد ١٩ سنة

من غيبته أى سنة ٤٣٠ هـ . وهى السنة الثانية والعشرون من سنى حمزة .
 كرّرت هذه الرسالة عبارة « الهادى القائم المنتظر » وعودته « الثابتة » .
 بظهورولى الحق عند تمام الإرادة . . . فقد غاب سلام الله على ذكره ،
 بعد إيجاب الحجة على العوالم . . . إلى أجل يتممه بمعالم حكمته ، ويُنْهيه
 إثباتاً لحجّته على العالمين » .

والرسالة ٤٣ : تصوّر غياب حمزة بأنه سفر أو رحلة يعود منها . وفى
 الرسالة ٤١ « إشارة إلى استتار الإمام . . . (الذى) لما غابت صورة المعبود .
 وامتنع قائم الزمان عن الوجود (الظهور) . أيسست كثير من النفوس ،
 من عدم العيان المحسوس . . . فتأملتُ كتاباً وصلّى من مولاي قائم
 الزمان . . . »

حمزة نفسه بالرسالة ٣٤ يعلن هذا الاستتار . حادثاً أتباعه على الثبات
 على العقيدة والولاء للهذهب ، والمناصحة . والمؤالفة والارتباط . متحدثاً عن
 غيبته العتيدة المقبلة بوعيد اختفاء الحاكم ، وعن رجوعه هو قريباً . محذراً
 ممن سيدعون الإمامة فى غيابه . ويقول : « اعلّموا أن غيبتى عنكم غيبة
 امتحان . . . فسوف يرد إليكم أمر ترونه عن قليل . . . فقد أُرِفَ الظهور ،
 وحان الوقت المقدور . وقد أنفذتُ إلى أهل طاعنى . ومن هو متمسك بإمامتى ،
 هذه الرسالة ، إعذاراً وإنذاراً . وهدى واستبصاراً ؛ فكونوا أيها الإخوان
 على أهبة من أمركم » . . .

يُستدلّ بالرسالة ٧٦ على أن حمزة كان بهذا « الإعذار والإنذار »
 يحذّر من ابن البربرية المدعى الإمامة . وهو على الذى ينكر حمزة أنه
 ابن الحاكم بأمر الله . وينتهى المستجيبين بالرسالة ٩ عن أن يقولوا بأن
 الحاكم أبوه . وقد تولّى الخلافة بعد الحاكم . ينعت بهاء الدين بالرسالة ٧٦ بأنه
 « المعنوى المدعى لمنزلة الإمام المسيح . . . النفل الشيطان ابن البربرية . . .
 الذى حذر العالم من أفككه قائم الحق قبل غيبته » . يقصد رسالة حمزة ٣٤

ورسالته ٣٣ التي مهّدت لها وتضمنت اعتزاز حمزة بما أولاه الحاكم من ثقة وسلطان وإطلاق يد في حكم الرعيّة ، بالرغم من محاولة أخصامه الفاشلة ، وفي مقدمتهم مزاحمته « ابن البربرية » .

كان حمزة يعيّن معاونيه ، « الحدود » الأربعة ، بموجب مرسوم تعيين يسمّى « التقليد » أى تقليد السلطة . من ذلك « سجل المجتبي » (النفس . إسماعيل التميمي) و « تقليد الرضى » (الكرامة . محمد القرشي) و « تقليد المقتنى » (التالى . على السموق) ولم يرد نصّ تقليد ثالثهم « المصطفى » (السابق . سلامة بن عبد الوهاب السامريّ) .

وكان المقتنى ، بعده ، يعيّن معاونيه من الدعاة . مثل « تقليد لاحق » و « تقليد سكين » و « تقليد أبى الكتاب » ، و الأمير معضاد . وبني جراح . يُشير التقليد إلى المهمة الموكولة إلى الداعي . كقوله : « ادْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » [الآية] ويأمر بالدعوة إلى التوحيد ، وأخذ الميثاق ، ونصب الدعاة والمأذنين ، والحذر من الفتن ، وحفظ اللحظ واللفظ . وجعل اللسان يقول الحقّ هادياً ودليلاً . . .

وما إلى ذلك من الوصايا والتعابير .

ويقسمّ جهاز الدعوة إلى مناطق ؛ فتقليد سكين يشمل بالدعوة جزيرة الشام العليا ، والأردن ، وبلاد الشراه وعمان ، والبلقا ، وحمص ، وحماء ، وتدمر . وسلبية ، وحوران . ويأذن بتعيين الدعاة والمأذنين ، ويحذر « من الاستكثار من لا خير فيه » بما يشبه الانتقاء للجهاز الماسوفى .

وتقليد الأمير معضاد يشمل عين صوفر ، والمروج ، وعين عار ، والبيهر ، وكفر سلوان . إلخ .

وهكذا سائر « التقاليد » أو المراسيم ، ونقتطف من مثن تقليدين ما يدلّ على ما يتضمنه التقليد من فحوى . فقد جاء في سجلّ « المجتبي » ما يلي :

« . . . جعلتلك خليفتي على سائر الدعاة ، والمأذنين ، والنبقاء ، والمكاسرين ، وجميع الموحدين ، بالحضرة الطاهرة وفي سائر جزائر الأرض

وأقاليمها . . . وجعلت لك الأمر والنهى على سائر الحدود ، ترى من شئت ،
وتعزل من شئت . . . من خالفك فقد خالفنى » . . .

وفى تقليد الرضى « . . . فرفعت درجتك . . لا أحد فوقك غير
صفوة المستجيبين (أى المُجْتَبَى) . . . مرهم بالمعروف ، وانهم عن
المنكر ، ومرتقاء بملزمة خدمتك ، ورفع ما يكون من الأخبار إليك .
ومن رأيتَه قصّر عن الخدمة ، وبان لك منه زلة ، فأبدله بغيره » . . .
واشترط فى إثبات الزلة شاهدين « ثقتين يشهدان فى وجهه . فإن تاب فتُبْ
عليه » . . .

وكان « التقليد » يُنسخ ويُسجّل فى ديوان المرحّدين وديوان النقباء .
هذا هو باختصار جهاز حذرة فى نشر دعوته .
فلننظر أولاً فى حمزة والمسيح .
ثم فى رسالته وحدوده .

حمزة والمسيح

ليس لي فيما أدون رأي خاص . إنما أنا أسرد موضوعياً ما انكشف لي من أسرارٍ قد يكون الكثير منها خافياً ، حتى على أبناء المذهب . والخفاء جفاء ، ولا سيما إذا كان فيها تواصلٌ بين الأديان ، يفيد معه الإعلان . وتربطُ سميتُهُ في فصل « الأسفار » قاسماً مشتركاً .

في ذلك الفصل أشرت إلى النظرية التوحيدية المتعلقة بدور عيسى . إنها تقول إن عيسى هو الذي فرّ به والداه إلى مصر ، رضيعاً ، وعاد به بعد ست سنوات إلى الناصرة ، وإن حياته محاطة بالغموض كولاته ، إلا مدة رسالته وهي ثلاث سنوات بعد سنّ الثلاثين . فلا تختلف سيرته خلالها في هذه الأسفار عن جملة ما ترويه الأناجيل .

لكنها تقول إن « السيد » لعيسى هو يسوع ، إذ أن لكل ناطق مُسَيِّداً . ويسوع هو « السيد الإمام العظيم » ، صاحب البرهان والمعجز ، الذي أشارت إليه الرسل . وهو الذي تبعه الحواريون ، إخوته الأكرمون ، صلى الله عليه وسلم . . . فلما صُلب عيسى ودُفِن اجتمع يسوع بتلاميذه ... « وما قتلوه وما صلبوه . ولكن شُبّه لهم » وهذا ترديد للآية ١٥٧ من سورة النساء

وتماها « وإن الذين اختلفوا فيه لني شك منه ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن » ، وما قتلوه يقيناً . بل رفعه الله إليه . . . فإن يسوع كان يُشبه عيسى في جسمه ، وزهده ، وعصمته ، كما تقول تلك الأسفار التي تؤيد اتصال المسيح بتلاميذه . وهذا القول بحدّ ذاته مشاركة جوهرية .

أما الفائدة من الاختلاف في الشكل فهي الالتقاء في الأصل . حتى إن بعض الطوائف المسيحية الأولى لم تكن تعتقد أن المسيح صُلب . فالباسيليديون Basilidans (في القرن الثاني للميلاد) اعتقدوا أن سمعان القبرواني هو الذي صُلب ، وليس المسيح . وأيّد هذا الاعتقاد « إنجيل برنابا » .

والدوسيتيون Docetae كانوا يعتقدون أن المسيح لم يكن له جسد، بل كان صورة ، كما يعتقد الدروز في «الحاكم» . وإنجيل مارسيون Marcionite ينكر ولادة المسيح كما ينكر الدروز ولادة الحاكم .
في اختلاف الروايات الواردة في الأناجيل - متى ولوقا على الأخص -
تقول «الموسوعة البريطانية» حرفياً ما ترجمته :

«كل محاولة لتدوين سيرة حياة يسوع يجب الإقلاع عنها بصراحة ، لفقدان المادة التاريخية . فالحيجة التاريخية هي الإيمان والتبشير ، قبل الأناجيل» .

والمؤرخ الكبير فوكس جتكنسن ، بكتابه «يوسيفوس واليهود» ، في معرض كلامه عن الرحالة «هيرودوتس» يقول : «كانت اليهودية في القرن الخامس قبل المسيح منطقة صغيرة ، وأهلها كمية مهملية ، بحيث إن أذكى المسافرين إذا مرّ عبر سوريا وفلسطين ، قد لا يسمع بذكر لليهود» . فقد «كان ذلك الزمن زمن الأمور الصغيرة» كما قال «نحشميا» أحد أنبياء اليهود . أو كما يقول «دين ستانلي» عن اليهودية : «كنت ترى أقصى أطرافها من أي مرتفع وقفت عليه» .

عن ذلك التاريخ يقول المطران الدبس (في كتابه «تاريخ سوريا» : الجزء الثاني ، المجلد الثالث ، صفحة ٣٧٩ - ٣٩٠) ردّاً على إنكار اليهود ، وعلى المزاعم أن الأناجيل مختلفة وفيها تناقض : «إن الكنيسة لا تعتدّ بشيء من هذه . . . أطلقت لكل أن يعتمد على ما يراه صواباً فيها دون أن تضيق عقيدته بخلاف» .

فلنعد إلى النصوص :

الرسالة ٥٣ المنفردة بتاريخ ٢٢ صفر سنة ٤١٩ هـ . (أى السنة ١١ من سنى حمزة) إلى الملك قسطنطين (الثامن أخو باسيل الثاني) ، تبدأ بتمجيد «الإمام السيد المسيح» . أى «العقل» . وهو حمزة في زمن الحاكم ، وتصفه بأنه : «المسيح الإمام المتأله لطاعة المولى الإله» . وتفسر قوله : «اهدموا

الهيكل وأنا أقيمہ فی ثلاثة أيام » ، بأن اليوم الأول هو دعوته . والثاني ظهور الفارقليط (محمد) الذى تنبأ عنه إنجيل يوحنا (الإصحاح ١٥) . . . واليوم الثالث هو قيام حمزة بالتوحيد فى زمن قسطنطين . فالثلاثة أيام هى رمز لثلاثة أدوار .

ثم تقول الرسالة : « فيها هو قد ظهر لأهل التوحيد كما وعد . . . لكم سوابق فى الدين الصحيح ، فلا تنكروا بعد المعرفة رجوع المسيح » . أى الجبىء الثانى فى شخص حمزة ، بعدما تحققت جميع النبوءات وظهرت العلامات المذكورة فى الأناجيل . . . إلخ .

والرسالة ٥٤ الموجهة إلى : « جميع من تقرب إلى اللاهوت بحقيقة القربان ، وتمسك به من كل أهل الحق ، قسيس وبطرك ومطران ، أهل التوحيد والدين ، المقتفين لآثار الطهرة الحواريين » كغيرها من الرسائل ، ترد أن المسيح هو « العقل » ، وفى عهد الرسول هو سلمان الفارسى ، وفى دور « الحاكم » هو حمزة ، وأن الحاكم بمثابة « الأب » لحمزة كما كان الله بمثابة « الأب » للمسيح .

فى هذه الرسالة ، التى يرجع أنها كتبت بعد ٩ سنوات من غياب حمزة ، إشارة إلى مرور ٩ سنوات من الاضطهاد ، بقولها : « فأنتم عن هذه التسع التى أعلن فيها ببشارة الملكوت غفول حيارى . . . إن العلامات كلها قد ظهرت . . . جميع هذه الأمور ذكرت للراهب " الجرجانى " فى الرسالة التى سميتها إليه السيد (حمزة) » .

وفىها ذكر « خروج المسيح من العالم » ، لا صلبه . فإن الدعوة تتضمن ظهور المسيح ثانية بشخص حمزة ، ثم اختفائه ثانية ليعود فى يوم الدينونة ، ولكن وجوده غير ظاهر « لا يخلو منه عصر » كما تقول الرسالة ٣٤ .

من باب التوفية ، لا بأس بإيراد الفقرات التالية من الرسالة ٥٣ :
« أريقوا أسماعكم أيها الإخوة للقول الصحيح . فقد شعثت الآفاق بنور قيام المسيح . . . إن النور قد جاء إلى العالم فأحب الناس الظلمة . . . فهذه

بشارات السيّد المسيح قد فَلَمَّجَت بها الحجة عليكم . . . لا ترجعوا بعد التوحيد على الأعقاب . . . وأنتم يا جماعة القدّيسين أوّل مَنْ اقتنى آثار الحوارين الحدود ، وأبصر وصبر على توحيد المعبود . . .

ولا بدّ أخيراً من الإيضاح أن المذهب يحترم ويكرّم جميع الأنبياء ، كما يفعل القرآن الكريم . ويعتبر النبوءة قداسة لا تَنْبُؤُا بما سيكون ، ويأمر بأن لا يُوجَّه الدعاءُ في الصلاة إلّا إلى الله ، عملاً بقول رسول الله : « لا يُسْتَغَاثُ بي . وإنما يُسْتَغَاثُ بالله » . وبقول الآية : « فلا تدعوا مع الله أحداً » . أما الشفاعات والوساطات فغير واردة في المذهب ، ولا ساطة لرجال الدين إلّا بالموعظة والإرشاد وفقاً للآية : « فذكر . إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر » . وهم يُنذرون ويحذرون ويرددون وصيّة فيثاغورس : « أوّل ما أوصيك به تقوى الله ، وإكرام عمّار الأرض ، وسلفك ، وذوى القربى . . . ولا تَنْتَمِ قبل تصفّح أعمال نهارك ، لتكفّر عن مكروه أتيته ، وتبتهج بما أحسنته » . فإن ذلك يرقّيك إلى الفضيلة الإلهية .

رسالة حمزة

من أشقّ الأمور شرح رسالة حمزة ، أو دعوته الروحية ، لما تضمنته من رموز كثيرة الغموض ، وإيضاحها في فصل واحد ، مع التزام الإيجاز ، والتقيّد بنصوص العدد القليل من الرسائل التي بين أيدينا . لذلك أترك لسوای التوسع في درسها ، ناقلاً بما أستطيع من أمانة في الأداء ، ما يمكن استيعابه بسهولة ، من أقواله في رسائله . إذ أنه ليس من حقّ توضيحها وتفسيرها كما أفهمها ؛ رعيماً لحرّة أبحاثها . . .

أبدأ بخلاصة مبسّطة من تعريف حمزة المسنّهَب لعناصر الوجود الإنساني ، وتفاعل الروح والعقل والمادّة في التكوين . بما مفادُه :

١ - الباري هو الإله العال . وكلّ شيء معلولٌ بعِلّته . وعلّته هي « العقل » المُبْدَع .

أما العالُ فإنّ العقول تقف حسرى عن إدراك لاهوتيّته .
وأما المُبْدَع فهو الجوهر الأزليّ ، محرّك الحركة ، وهما متلازمان ، وهو المسمّى عالم العقل السابق لكلّ فعل ومفعول .

ثم انفعّل الفِعْل . ففعل فعلاً هو دونّه . فكان ذلك عالم النفس الشريف ، المتحرّك بالحرّك ، القائم بالحركة ، الثابت بالعظمة ، أى عظمة عالم العقل ، لأنه أبسط الأنوار والطفُّها . وعالم النفس دونّه .

بذلك تبايننا ، وبالجنسية تمازجنا ، ولم يزلّا تمازجيين ، ومتحرّكين ، أحدهما دائر على الآخر ، وهما أوّل محرّك ومتحرّك بألوهية العالّ لجميع المعلولات .

من هذين الأصلين (العقل والنفس) ينبثق «الكلمة» البسيطة . والنور البسيط («السابق») . والحكمة اللطيفة («التالى») . أى سابق العلم والمعرفة الإنسانية وما يتلو منهما .

فيكون « العقل » محور ، أو نقطة بيكار ، أربعة جوانب . هي « الحدود » الأربعة (النفس ، الكلمة ، السابق ، التالي) لعالم الوجود الروحاني . أركان الوجود وأصوله .

٢ - أما تعريفه للعالم الجسماني . أى الطبيعة المادية . فهو إنها بدءٌ حركة وسكون من ذاتها المضافة إلى عالم النفس (أو الروح) الحاوى لها ، الحاكم عليها .

والطبيعة إنما تتم أفعالها بالحركة ؛ ليخرج كل ما هو بالقوة (أى الطاقة) إلى الفعل بالحركة . فإذا تمت فعلتها من نحو شيء ، سكن فعلها في ذلك الشيء . « فتكون » من الحركة حرارة ، ومن السكرن برودة ، وتولد بينهما رطوبة ويهوسة . وتولد من الحرارة واليهوسة النار . وتولد من البرودة واليهوسة الأرض . وتولد من الرطوبة والبرودة الماء . وتولد من الحرارة والرطوبة الهواء .

٣ - تفاعلت الأصول الروحانية - العقلية ، والنفسية (الروحية) - ودخل فعلها في الجسمانيات ؛ فارتفعت الأنوار بقوة الحركة ، وتكونت الأفلاك . والنيرات ، والمجرات ، و « الاستقصات » ، المتحركة .

امتزج اللطيف بالكتيف ، وتكونت الجمادات ، والنبات ، والحيوان والإنسان الناطق الفاضل ، ثم خالقُه من نفس وجسد . من لطيف روحاني ، وكتيف جسماني .

« فما لطّف ، إلى عالم العقل يرقى . وما كتف ، ففي عالم الطبيعة يبق . وقد ارتبط ما يبيد ويفنى ، بما لا يبيد ولا يفنى ؛ لأن اللطيف من بداية ، وليس له نهاية . والكتيف من بداية ، وله نهاية ، وهو آخر فعل الطبيعة . وإخراج ما في القوة إلى الفعل ، بالحركة » . . .

أوضح رسائله من هذا القبيل ، الرسالة ١٤ [« سبب الأسباب »] آخر رسائل الكتاب الأول من « المعلوم الشريف » ، وهي شرح لمهمة العقل ، وعلاقة العالمين والدعاة به . كتبها جواباً على استفسار وجهه إليه أحد الدعاة :
نلخصها بما يلي :

ليس علم التوحيد كعلم الفلاسفة . فلا الإحدانية كالمواحد ، ولا العال ،
الذى لا يُدرَك ، كعلية العلم . بل الحقائق من المُعَلِّ الأحد ، تُمنَحُ
لعبده علة العلل الواحد ، الذى يفيد العالمين ، بما أبداه الله من حكمته ،
فى كل عصر وزمان . والناس بمنزلة التلاميذ . كل صبي منهم عليه طاعة
أبيه أكثر من طاعة المعلم . ويحبه أكثر منه .

إن الأب فوض أمر ابنه إلى المعلم . على أن الأمر الحقيقى الكلى للأب .
ولكن المعلم هو الذى يعلمه الخير ، وينهاه عن الشر . . . فإذا كان للمعلم
خصال مذمومة كان الأب خصمه . . . كذلك « إمام الزمان » ، عبد المولى
جل ذكره ، فهو مؤدب العالم ، ومربيهم بالعلم الحقيقى . فوض الله أمور
عبيده الدينية إليه . وجعله علة لهم . وبه ثوابهم وعقابهم .

والمولى سبحانه المعبود . لكنّه منزّه عن المشافهة والمخاطبة . وعن التربية
والإفادة . فجميع أمور الدعاة والمأذنين والمكاسرين والمستجيبين راجعة إلى
الإمام (العقل) فى كل عصر وزمان . يعزل ، وينصب من يريد ، ويُعطى
من العلم الحقيقى ، ليس له أن يدعو إلى نفسه فى العبادة . . . الإمام هو
الأمر ، وسائر الحدود بمنزلة الجنود ، والمستجيبون بمنزلة الرعية ، فُرضت
طاعته عليهم . . . جعل الله العقل إماماً — « لا إمام سوى العقل » —
يصلون به إلى معرفة البارى المُعَلِّ المبدع الذى أبدع العقل .

ثم يقول عن نفسه : « ما من عصرٍ إلا دعوتُ فيه العالمين إلى توحيد
مولانا العلى الأعلى ، وإلى عبادته ، بصور مختلفة ، ولغات مختلفة » . . .
علة العلل هو القائم بأمر الحدود . والحدود محيرون فيه . بعضهم يشكون
فيه ، وينقصون من منزلته . وبعضهم يُغالون فيه ، ويجعلونه المعبود
الكلى . . .

فمن أقر له بالإمامة ، وبأنّه لا حول له ولا قوة إلا بالله ، زالت عنه الأمراض
الدينية الحقيقية التى منها الموتة الأبدية . والله معل هذه العلة أى مبدعها . . .
وهو العلى الأعلى ، بلا بداية ، ولا نهاية ، سبحانه وتعالى عما يصفون . . .

هناك علّةٌ علّم لا غير ، لا ذات نطقٍ ولا سمع ، ولا شخص وقع عليه عيان ، ولا إحاطة بتحقيق مكان . . .

« آدم الصفاء الكلى هو علة العليل ، ينتقل من صورة إلى صورة ، كما يشاء مُعانيها الأحد الصمد . . . فعلة العليل حاضِر في كلّ زمان ، وجود في كلّ مكان . . . هو الإمام العظيم . ظاهر في كلّ زمان ، هادٍ في كلّ أوان . . . » الرسالة ٣٦ - تأليف « النفس » - ثاني حمزة ، تُسمى « العقل » « علة العليل » . والله تعالى المعلّ لها . وتقول إن الله « أبدع لنا نوراً شعشعانياً جعله عنصراً لانبعاثات العلوم الحقيقية ، وإنشاء الصور النفسانية . فهو العقل الكائى والسابق الأوّل . ذو البدايات والنهايات . . . ذلك النور القائم في كلّ عصر وزمان . . . ينقله المولى سبحانه ، كلّ عصر وزمان ، باسم وصفة . . . » وحمزة في الرسالة ١٧ يعرف الإمام وحدوده : يُسميه « السابق الحقيقي » الذى أبدعه البارئ قبل جميع الحدود ، وهو العقل الذى خلقه الله قبل الأشياء كلّها ، الإمام الذى أُحصى فيه كلُّ شيء . يتعرف العالمين ولا يعرفونه . نصب « التالى » من قبليّه . سُمى تالياً لأنه يتلوّه فى العلم . وقبل له « أساس » المستجيبين . أى أصل بنائهم . يجب عليهم طاعته ، ما دام هو طائعاً للمولى ، ولالإمام الذى نصبه . والإمام سُمى « السابق » لأنه أول من سبق إلى معرفة المولى سبحانه . ونطق بالحقّ ودعا إلى توحيد الله . وسُمى الثالث « الجدل » لأذنه جدّ فى طلب العلم من الإمام . والرابع « الفتح » لأنه يفتح باب العهد على المستجيبين . والخامس « الخيال » لأنه يلوّح بعلمه ، بغير كشف ولا تبيان . . .

هؤلاء الخمسة مغيّبون عن عيون الجاهلين . من « العقل » يؤخذ العلم ، وهو الوسيلة إلى رحمة الله . و « الباب » الذى يدخلون منه إلى توحيده . وهو يربى « الحدود » بالمعرفة والحلم . . . ينطق بتأييد الله روحانياً بلا واسطة . والحدود يتكلمون من علمه هو . . .

فمن هم هؤلاء الحدود ؟ روحانيين ! ومشخصين !

الحدود

يمرّ قارئُ الرسائل ، في مواضع كثيرة منها ، على أسماء وألقاب : مختلفة المطابقة ، ملتبسة الأداء . كما هو الشأن في الرموز الباطنية . بعضها لنفس المسمى بصيغة المذكّر حيناً ، وبصيغة المؤنث حيناً آخر . وبعضها يجعل « العقل » أوّل الحدود الخمسة ، أو يجعل الحدود أربعة . مستثنياً العقل ، باعتباره فوقهم جميعاً .

في اختلاف الترتيب هذا ، تُعطى النعوت للمرتبة دون الحدّ نفسه . فيتمتع الالتباس عند من تفوتهم معرفة الطريقة الباطنية ومواضع استعمالها . وإليك بعضها :

١ - « العقل » = العقل الكليّ . الإرادة . ذومعة . السابق الحقيقي . عين الزمان . قائم الزمان . علة العلل . الأمر . الإمام . الباب . إلخ . . . هذه الألقاب أطلقت في زمن الحاكم على حمزة بن علي بن أحمد .

٢ - « النفس » = النفس الكلية ، المشيئة ، ذومصة ، التائي ، حجة الإمام ، داعي الإمام ، صفوة المستجيبين ، هرمس ، أخنوخ ، إدريس ، يوحنا ، إلخ . . . في زمن الحاكم أُطْلِقَت على « المجتبى » إسماعيل بن محمد ابن حامد التميمي (أبو إبراهيم) .

٣ - « الكلمة » = الجناح ، الجناح الرباني ، سفير القدرة ، صاحب السفارة والكلام ، بشير المؤمنين ، كلمتهم العليا ، داعي القائم . . . إلخ . . . في زمن الحاكم أُطْلِقَت على « المرتضى » محمد بن وهب القرشي (أبو عبد الله) .

٤ - « السابق » = الصغير ، الباب السابق ، باب حجة القائم ، الباب الأعظم ، الجناح الأيمن . . . إلخ . . . في زمن الحاكم أُطْلِقَت على « المصطفى » سلامة بن عبد الوهاب السامريّ (أبو الخير) .

٥ - « التائي » = الجناح الأيسر ، رابع الحدود ، آخر الحدود . . إلخ . .

في زمن الحاكم أطاقت على « المفتي » بهاء الدين ، على بن أحمد السموقى (أبو الحسن) .

جميع هؤلاء مشخصون أو ممثلون ، كما جاء في « الحكمة » ، ليس في زمن الحاكم وحسب ، بل في جميع العصور . فإن الرسالة ٣٤ تقول بإسان حمزة : « لا يخلو منى عصر » . بمعنى أنهم يتفحصون الثوب البشرى كسائر البشر . كما تصفهم الرسالة ٣٢ . دون أن يعرفهم الناس .

ولهم أسماء ونعوت رزية غير ما ذكرنا . كالناطق للعقل ، والأساس للنفس ، و « الأساسين » و « الأصلين » لكليهما معاً ، كما جاء في الرسالة ٣٠ : « سبحانه يا مبدع العقل التام . . . وخالق النفس المنبعثة منه . . . الأساسين اللذين بهما قامت التدابير في هذا العالم الجسماني . . . الأصلين الأعلىين الأنورين » . . . وفي الرسالة ٣٧ : « النفس غير منفصلة عن العقل لقبول المادة الإلهية ، فن تغذى ورؤى من علوم هذين الأصلين ، فقد أكل من ثمار الجنة ، وشرب من مائها ، بالحقيقة والمعرفة » . . .

إن الحدود الثلاثة الأخيرين يسمون أحياناً « الجدد » و « الفتح » و « الخيال » . وأحياناً تضاف هذه الأسماء الثلاثة (الجدد والفتح والخيال) إلى الحدود الخمسة المصنفة في هذا الفصل . فيصبح الجميع ثمانية . كما جاء ذكرهم في الرسالة ٣٨ . وفي هذا تشابك محير لغير الراسيخين في علم التوحيد ورموزه . فن هذه الروز تسمية الحدود « آيات » أو « آيات التوحيد » أو « الآيات المحكمات » [كما في الرسالة ٣٨] أو « الأشياء الحقيقية » . كما جاء في الرسالة ١٧ : « الأشياء الحقيقية هم الحدود الذين من قبيل الإمام » . أما في الرسالة ٦٧ فإن « الأشياء هم أهل التوحيد » . ومن ازدواجية بعض الألقاب أن العقل يسمى « الحجة الكبرى » . والنفس « حجة » العقل . كما أن بهاء الدين من الحجج . وقس على ذلك أسماء وألقاباً ونعوتاً وكنيات متكررة لا مجال لتعدادها . في المذهب أن الحدود لا يخلو منهم عصر . فلننظر فيمن هم في عصر الحاكم بعد حمزة :

النفس :

هو أبو إبراهيم إسماعيل بن محمد التميمي ثاني الحدود . وجهه إليه حمزة كتاب تعيين ، أو مرسوم « تقليد » ، مدونة نسخته في « سجل المجتبي » ، جعله بموجبه خليفته . وسماه « صفوة المستجيبين » و « كهف الموحدين » . يأمر وينهى . ويولّي ويعزل . فقد قال له فيه : « فما رأيت فيه من صلاح وعلمته فهو أمرى . وما نهيت عنه فهو نهىي . من خالفك فقد خالفني ، ومن أطاعك فقد أطاعني »

في هذا الكتاب ، وفي غيره ، يذكر أنه صهره . هذه اللفظة بمعنى القرابة المعنوية لا المصاهرة . والكتاب لا يحمل تاريخاً . ولكن فحواه نذل على أن حمزة عهد بالسلطة إلى التميمي وهو على أهبة الاعتزال .

والتميمي في رسالته ٣٩ ، التي كتبت على أثر « التقليد » المذكور ، يقول إن الإمام جعله « تاليه » ، وحجته ، وقابيل صورته ، ومودع سره وحكمته ، وأوجد منى حدود دعوته (الحدود الثلاثة الباقين) . . . فأنا النفس . ومنزلي من إمام الهدى بمنزلة القمر من الشمس . . .

وفي رسالته ٣٦ يقول إن قائم الزمان أمره بتصنيفه فوجد نفسه عاجزاً . لكنه يثق أن القوة منه واصله إليه . فألفه بما أيده به روحانياً . « فما كان فيه من صواب فهو منه . وما كان فيه من خطأ وزلل فهو مني » . . . وسمى نفسه « ذا مصبة » لأنه يمتص منه العلم . هذه الرسالة تاريخها محرم الثالث سنة ٤١١ هـ .

وله رسائل في « الحكمة » . منها الرسائل ٣٧ و ٣٨ و ٣٩ . ومن نظمه « شعر النفس » [٤٠] فقد كان شاعراً وعالمًا معاً .

يطلق عليه أحياناً لقب « التالى » كما قال هو عن نفسه في الرسالة ٣٩ . لهذا يقتضى تكرار الإيضاح منعاً لوقوع الالتباس عندما يطلق اسم « السابق » أو « التالى » في الرسائل . فالتالى هو « النفس » عندما يقصد بالسابق « العقل » .

أما عندما يُقصد بالسابق رابع الحدود الخمسة فالتالى، أى تاليه، يكون آخرهم، وهو بهاء الدين فى دعوة حمزة .

واستناداً إلى بعض المراجع ، ومنها كتابات بهاء الدين ، يكون إسماعيل التميمى لم يزل حياً سنة ٤٢٧ هـ .

الكلمة :

هو أبو عبد الله ، محمد بن وهب القرشى ، ثالث الحدود ، وأوّل الثلاثة الذين أضيفوا إلى العقل والنفس اللذين يسميان عند أهل الباطن السابق والتالى . وقد أشرت إلى الالتباس الذى يقع فيه القارئ عند محاولة التمييز بينهما وبين السابق والتالى ، أى الرابع والخامس ، عند الموحّدين .

معلوماتنا عنه نجدها فى الرسالة ٢١ المؤرخة ، « فى شهر شوال الثانى » ، حين رفعت درجته وعُيِّن خلفاً لسلفه « المرتضى » المتوفى . إذ أن التقليد يقول : « .. هى المنزلّة التى كانت للشيخ المرتضى قدّس الله سرّه . وأنت تسلمت علومه وحده » ، وواريته تربيته ولحدّه . وقد سلمت إليك جميع كتبه التوحيدية ، وجعلتك مقدّماً على جميع الدعاة والمأذونين والنقباء والمكاسرين والمستجيبين الموحّدين . لا أحد فوقك أعلى منك غير صفوة المستجيبين ، أخى وصهرى (أى حليفى) إسماعيل بن محمد التميمى . فاستخير مولانا سبحانه ، واخدمه حقّ ما يجب عليك من مذهب مولانا . . . والطّف بالدعاة وجميع الموحّدين ، وهرّهم بالمعروف ، وانتههم عن المنكر . . ومُرّ النقباء برفع ما يكون من الأخبار إليك . . . وأوصيك بالمستجيبين . كنّ أبناً شفيقاً ، ومرّبياً رفيقاً »

ولم تتضمّن الكتبُ « التقليد » الأوّل الذى تشير إليه عبارة : « أمرتك به فى تقليدك الأوّل » التى وردت فى هذا التقايد (الثانى) الذى به رفعت درجته . أما « تقليد المقتنى » [الرسالة ٢٢] ففيه ذكر للرضى « عماد المستجيبين وكلمتهم العليا » . وفى سنة ٤١٨ هـ . إشارة ثانية فى الرسالة ٦٥ إلى

« الرضى » عن ادعاء « سكين » منزلته .

إن المراتب الروحانية الثلاث بعد السابق والتالى ، أو الناطق والأساس ، عند الباطنية ، قبل التوحيد ، اعتبر فيها « الجلد » الحدة الثالث ، كما جاء فى الرسالة ٤١ أى « الكلمة » . وكما جاء فى « شعر النفس » : (غدا « السابق » السامى إليه و « تآليه » مع « الجلد » و « الفتح » « الخيال » الملاوم) . فللتمييز بين السابق عند الباطنية والسابق عند الموحدين أضيف إلى هذا هنا نعت « السامى » وفى مواضع أخرى يضاف لفظ « الأول » .

السابق :

هو أبو الخير سلامة بن عبد الوهاب السامري ، رابع الحدود ، فى عهد الحاكم .

ليس فى الكتب المجموعة ، وهى ستة بين يدى الدروز اليوم ، ذكر خاص للسابق أسوةً بسواه ممن قُتلوا من قبيل حمزة . وهذا مما يثبت أن هذه الكتب الستة ليست مجموعة كاملة لرسائل المذهب وهى مكاتبات ، بينها بضعة منشورات ، أشبه برسائل بولس الرسول إلى أهل رومية وكورنثية ، وغلاطية ، وأفسس ، وفيلبى . ورسائل بطرس وبروحنا وغيرهما .

ولكن لا شك فى أن « السابق » قُتل السلطة بمرسوم لَمْ يُنْقَل إلينا . دليلنا فى « تقليد المفتى » ، اللاحق ، عبارة « تالى السابق سلامة بن عبد الوهاب السامري » . وقوله ، عند تعيينه جناحاً أيسر « إذ كان الأيمن قد تقدّمك وهو سلامة بن عبد الوهاب (المصطفى) . . . ولا يكون أخذك على المستجيبين خارجاً عما فى تقليد أخيك المصطفى » . . .

فى صدد التسميات الباطنية التوحيدية ، نستشف من خلال الرسائل أن « العقل » يرمز إلى أساس الوجود الإنسانى بانبثاقه من نور الله مصدر كل وجود . و « النفس » مصدر الحياة الروحانية والحسية ، منبثقة من العقل ، علّة الوجود . و « الكلمة » ترمز إلى المنطق المنطلق من اتحاد العقل والنفس .

هنا نصل إلى المعرفة ، نور الوجود الإنساني ، وهي تنقسم إلى « السابق » و « التالى » من العلم لإكمال المعرفة . فالسابق والتالى هما الينبوع الذى يجرى بالمعرفة الإنسانية .

لذلك تقول الرسالة ١١ :

« السابق هو دَكَّةُ العالم . وعلومهم منه . إذ كانوا لا يعرفون فوقته شيئاً ... والمستجيب إذا بلغ عالمَ السابق ومعرفةً ، حسب أنه بلغ الغاية والنهاية الناطق يعصر علمَ التالى » . يعنى بذلك أن التالى يكمل علم السابق .

التالى - « بهاء الدين » :

هو أبو الحسن على بن أحمد السموقى . خامس الحدود . « المقتنى » . اشتهر باسم بهاء الدين . وبالإضافة إلى الأسماء والنعوت التى أطلقت عليه ، فإنه يسمى نفسه ، فى الرسالة ٤٦ ، « لسان المؤمنين » و « سند الموحدين » و « الجدد الرابع الأصغر » . وفى الرسالة ٤٨ « رابع الأعداد » و « مملوك الإمام » و « العبد الطائع » . وفى الرسالة ٤٩ « العبد المقتنى » و « الناصح » و « أصغر عبيد القائم »

قام بأعظم قسط من نشر الدعوة ، وكتب أكبر عدد من رسائلها ، زاول أعماله فيها من سنة ٤١١ هـ ، حين قلده حمزة المرتبة الخامسة بين الحدود ، حتى سنة ٤٣٤ هـ ، كما يُستدل من الرسائل التى كتبها فى تلك السنة . لذلك فإن سيرته تستحق بعض الإسهاب لما تخللها من نشاط فى تنظيم الدعوة ونشرها بعد غيبة الحاكم وحذرة ، إذ أصبحت دعوة روحية صِرْفًا ، فى حذر وخفاء تام . منذ ٤١٧ هـ حين وصلت إليه رسالة من حمزة باستئناف الدعوة بعد سكوته خلال ٧ سنوات من حكم « الظاهر » وهى سنة الحنة والاضطهاد .

قارئ تلك الرسائل يدرك مبلغ تأثيرها ، ومتانة تعابيرها ، وبراعة كتابتها فى المناقشة والإقناع والاسترسال . وقد نوه بهذه الموهبة حمزة فى تقليده [تقليد المقتنى] بقوله له إنه جعله من « الحدود العالين » و « الملائكة

المقربين» . . . «عند سماع لفظك ، ومعجز تنميقك ، وإحكام تاليفك . . . فكأنني نظرت إليك قديماً ، وعرفتلك بالذكاء والفطنة . . . فاستحققت بذلك علو المنزلة . ورفيع الدرجة » . ثم يقول له إن درجات الحدود كانت قد تقدّمته فلم يمكن قطعها أو تبديلها لتعلو فيها رتبته . لذلك جاءه « الجناح الأيسر » لأن « الجناح الأيمن » كان قد تقدّمه (وهو السابق سلامة . . .)

عن بهاء الدين لا نملك من المعلومات إلا ما تضمنته الرسائل . رسائله على الخصوص . وأكثرها بدون تاريخ . أما المؤرخة منها فأسبقها تحمل تاريخ السنة العاشرة من سني حمزة ، أي ٤١٨ هـ ، في شهر محرم ، موجهة إلى الشيخ المختار وهي الرسالة ٤٥ [« تقليد لاحق » - الأول] -

ولعلّ الرسالة ٤١ أولى رسائله . كتبت بعد غيبة الحاكم ، واستتار حمزة الذي ظل على اتصال بالمقتنى بهاء الدين ، يزوده بتعليماته وتوجيهاته بها يقول :

« لما غابت صورة المعبود (الحاكم) . وامتنع قائم الزمان (حمزة) عن الوجود ، أيسست كثير من النفوس . . . و . . . خشيت أن يخترجهم الإيأس . . . فتأمّات كتاباً وصلني من قائم الزمان . . . يرسم لي فيه . . . ويسجيز لي الكلام . . . ويأمرني بإيضاح . . . فوضعت هذا الكتاب . . . »

فقد كان بهاء الدين على اتصال مستمرّ بحمزة ، وعرفه بمقرّه السريّ ستين طويلاً ، كما تدلّ الرسالة ٨٨ . وتاريخها على الأرجح سنة ٢١ من سني حمزة (٤٢٩ هجرية) . وكان يتلقى منه الأوامر والتوجيهات . ويكتب الرسائل المشجعة . يؤيد بها الدعوة ، ويثبت على الإيمان . ويعد بانكشاف اللّمة ، وزوال الغمّة ، وانفراج الحنة . . .

أما سائر الحدود (النفس والكلمة والسابق) فقد اختفوا مع حمزة . فلم يبق سوى بهاء الدين يتصل بالموحدين ويعنّي بشؤونهم . على ذلك تدلّ مجموعة الرسائل أنه منذ « الغيبة » انفرد بالزعامة الروحية يأمر وينهى ، ويعين ويعزل ، في أقطار كثيرة ، منها مصر ، وسوريا ، والعراق ، والعجم ، والهند ،

واليمن . إلخ . . . في كل عمل يتعلق بشؤون الدعوة « التوحيدية » .

بلى الرسالة الأولى الموجهة إلى الشيخ المختار [الرسالة ٤٥] سنة ٤١٨ هـ .

رسالة موجهة في جهادى الآخر من السنة نفسها ، إلى « سكين » [الرسالة ٤٦]

يمنحه بها لقب « الشيخ المرتضى » . ويكل إليه شؤون الدعوة في : « جزيرة الشام العليا ، وحدّها من الشجرتين ، إلى الأردن ، إلى ما ضامّه من بلد الشراه . مع عمان ، وأرض البلقاء ، راجعاً إلى السواحل وكورها وجبالها شاملاً لعرّقة (قيل إنها طرابلس) وجنّوها . إلى رمنية وما ضامّها . مع حمص وأعمالها . آخذاً إلى حماة ، وتدمر ، مع سلميّة منبت الزعفران ... راجعاً فيما قبلها . حاوياً لدمشق وعملها ، مع بلاد البشنيّة وحروران » .

سكين هذا انقلب فيما بعد على رئيسه ، وأفسد في المذهب . وأدخل فيه جشواً وتحريفاً ، لا نعلم مداها حتى الآن ، مما استوجب النكمة والتنديد . وأصبح يُنسبُ إليه كلّ ناكث مريد . وينعتُ بأنه « سُكَيْنِي » .

وعينُ بهاء الدين أبا الكتاب [الرسالة ٤٧] في البيضاء وجميع بلدان الصعيد . وعينَ « الأمير ابن يوسف أبا الفوارس معضاد » [الرسالة ٤٨] الساكن بفيلسجين ، داعياً تابعاً لأمر سُكَيْنٍ بقوله :

« أورد وأصدري مآربك عنه . . . فهو الضامن لعمارة هذه الجزيرة ، ووقى أردت مواصلتنا برسول ، فأنت ، بعد مشورة سُكَيْنٍ واطّلاعه ، مسامح » . . . أى أن معضاد لا يخاطر بهاء الدين مباشرةً ، بل بواسطة سكين الذى لُقّبَ بالشيخ « المرتضى صفوة الموحّدين » . هذا قبل انحرافه .

وتلاه « تقليد بنى جراح » الذى به عينَ بهاء الدين الأميرين جابر وزمّاخ ، ولدئى مفترج . دون تعيين الأمكنة . ولا شك أن مثل هذا التقايد كثير لم يصل إلينا . فإن تنظيم الدعوة كان على نطاق واسع في أقطار عديدة . منها ما كان خاضعاً للفاطيين ، ومنها ما كان خارج رقعة دولتهم الواسعة . في بلدان بعيدة كالحند . كما تدل الرسالة ٦١ ، والرسالة ٥٣ الموجهة إلى الإمبراطور قسطنطين الثامن سنة ٤١٩ .

وقد كان لكلّ داع « مأذونون » ومساعدون . وكانت الدعوة منظمة تنظيمًا مُحْكَمًا في جهاز دقيق ، كما رأينا مثلاً في إتباع الأمير معضاد لسكّين . والمخابرات تجري بالتسلسل . وإن كان معظمها مفقوداً ، تدل على بعضه عبارات واردة في قليل من الرسائل . ولكن ما لدينا منها يثبت أن زمام السلطة ، في غياب حمزة ، كان بيد بهاء الدين . ولا أخالي أعدو الصواب إذا قلت إن جميع رسائل الكتّابين الثالث والرابع من الكتب الستة ، هي من قلمه . تضاف إليها رسائل الكتّابين الخامس والسادس ، ابتداءً بالرسالة ٧١ .

انتهت دعوة بهاء الدين في السنة ٢٦ من سنّى حدزة (٤٣٤ هـ) على أقرب تقدير . فإن رسالة « المواجهة » [الرسالة ٨٨] والرسالة ٩٨ كتبتا سنة ٤٢٩ هـ . والرسالة ٧٤ مؤرخة سنة « ٢٢ » أى ٤٣٠ هـ .

وكانت آخر رسائله ، التى لم يُسمع به بعدها ، « منشور الغيبة » الذى يبدو بداهة أنه كان رسالة الوداع .

قيل في غيبة بهاء الدين إنها « كانت محنة عظيمة على الموحدين ، بانقطاع الدعوة ، وإبطال نصّ الحكمة ، وحصل عندهم بهذا ضعف عظيم في نفوسهم » .

الفرائض

قال فولتير : « المذاهب تختلف لأنها من صنُّع الإنسان ، ولكن الفضيلة واحدة في كل مكان لأنها من الله » .
هكذا المذاهب الإسلامية ، اختلفت في قضايا الإيمان والدين ، أو العقيدة النظرية وممارستها الفعلية .

فكان علم الكلام أو الفلسفة اللاهوتية ، وهي مزيج من المنطق والتحليل الفلسفي اللاهوتي ، مبنياً على قواعد وأسايب يصعب الأخذ بها وإثباتها علمياً . إنه دخيل ، نشأ مع المذاهب ، لتبريرها أو لتسفيهاها .
ورافق هذا العلم جدوج وغدو وإبتعاد عن السُنَّة . وهذا هو سرّ الخلاف في معالجة مسائل شائكة لا نهاية للمناقشة فيها . من واضعيها : العزّة الإلهية ، وعلمُها ، وعدُّها ، وقدَرها ، والوعد ، والوعيد ، والمصير ، والحلال ، والحرام ، وشؤون الإمامة . . .

وقد نشأت الفرق بعد وفاة معظم الصحابة ، وعلى أثر الاستقرار السياسي ، والفراغ من الحروب وفتوحاتها الكبرى . وقيل إن تلك الفرق بلغت ٧٣ فرقة .
ورافق علم الكلام ممارسة الدين ، أو تطبيق النظرية الدينية على الحياة . فكان الشرع ، من أجل سلامة المجتمع ضد الانحرافات والقلق والخيرة ، ومن أجل طمأنينة الفرد وصيانة حقّه .

كل ذلك ضمن نطاق الإسلام . وقد أتينا على ذكر بعض تلك المذاهب وفلسفتها ، توصلاً إلى تعريف مذهب « الموحدين » الذي اكتنفه غموض مُزْمِن ، عبر القرون . أردنا جلّاء اليوم ، خدمةً للمعرفة ، بسد فراغ في المكتبة العربية .

وها نحن في صدد الفرائض التوحيدية . وهي إضافة إلى الفرائض القرآنية .
إن هذه الازدواجية كثيراً ما جرّت إلى التباس في تبين الغرض منها ،

وصعوبة في تفسيرها ، حتى عند أصحابها .

فالصلاة ، في ظاهرها ، يرافقها معنى عميق . منه « أنها صلة بين المستجيبين والإمام » عند أهل الباطن . وأنها « صلة القلوب بالتوحيد » عند الموحدين . وما أشبه بعض تفاسيرها بقول الشاعر « كولريدج » : « يُسجد الصلاة من يجيد المحبة » .

وللأعياد معنى الخشوع والطاعة . في ذلك تردّد إحدى الرسائل توبيخ إشعيا لليهود بقوله : « سَبَّحْتُمْ مَرْدُولٍ عِنْدِي . . . إِنَّمَا الْعِبَادَةُ عِنْدِي الطَّاعَةُ لَوْصَايَايَ » .

وتقول الرسالة : « إن الزكاة — في الحقيقة — تزكية القلوب ، وتطهيرها » . وكان للزكاة معنى آخر باطنياً أسَمَّطَ « مَنْعاً عن أذية أحد من النواصب ، وقَرَّيْ بِذَلِكَ سَجَلٌ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ بِأَنْ لَا يُلْعَنَ أَحَدٌ » من الصحابة . في ذلك يقول المقرئزي إن حظَّ السَّبِّ لرفاق الرسول كان سنة ٣٩٨ هـ إذ منع الحاكم ذلك السَّبَّ الذي كانت تمارسه الشيعة الباطنية .

وللصَّوم باطنٌ هو الرياضة الروحية والتعبد ، بقول الرسالة ٧ : « باطن الصوم الصمت » . إشارة إلى قوله تعالى للمريم : « فَكَلِيَ وَأَشْرَبِي وَقَرَّرِي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ لَنْسِيًّا » . بحجة أن الآية السابقة تأمرها : « هَزَّيْ إِلَيْكَ بِجَذَعِ النَّخْلَةِ تَسَاقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا » . هنا ، في قول ابن عباس ، الصوم يعني الصمت ، وفي قول ابن عبيدة : « كُلُّ مَمْسِكٍ عَنْ طَعَامٍ ، أَوْ كَلَامٍ ، أَوْ سَيْرٍ ، فَهُوَ صَائِمٌ » .

يقول المقرئزي إن القائد جوهرًا لما دخل مصر على رأس جيش المعز لدين الله فرَّضَ مناسك الشيعة . فجعل صوم رمضان ونهايته وفقًا لحسابهم الفلكي ، دون الصيام والإفطار لرؤية هلال رمضان . فكان الناس يبدأون الصيام مع جوهر ويفطرون معه . حتى كانت سنة ٣٩٨ هـ . وهي السنة التي كان فيها التحوُّلُ عن فروض الشيعة ومَنَعُ سب أعداء الإمام على ، وأصدر

« الحاكم » منشوراً أجاز به الصوم لكل حسب قاعدته .
 وللحجّ والجهاد كذلك جانب باطنى آخر يضاف إلى الظاهر ، كما تضاف
 إلى جميع الفرائض القرآنية « فرائض توحيدية » أخرى تضمنتها الرسالة ٦ وهى :
 « أولها : وأعظمها صدق اللسان

وثانيها : حفظ الإخوان

وثالثها : ترك عبادة العدم والبهتان

ورابعها : البراءة من الأبالسة والطغيان

وخامسها : توحيد المولى جل ذكره فى كل عصر وزمان

وسادسها : الرضى بفعله كيفما كان

وسابعها : التسليم لأمره فى السرّ والحدّثان » .

هذه الفرائض تُكرّر فى رسائل عديدة ، بصيغ مختلفة ، مجتمعة أو منفردة .
 وإن بهاء الدين وضع سبعة كتب عن هذه الفرائض ليس المدينا منها إلا جزء
 أو كتاب واحد [الرسالة ٤١] به يشرح الفريضة الأولى . وهى الصدق .

إن مذهب التوحيد يوصى بممارسة الفرائض القرآنية . وإثباتاً لقولنا
 نقتطف من الرسالة ١٥ ما يلى :

« ليس كلّ من عرف باطن شيء وجبّ عليه ترك ظاهره . وفى
 الأشياء ما لا يجب ترك ظاهره . ولو علم تأويله على سبعين وجهاً .
 منها الطهارة ، وباطنها البراءة من الأبالسة ، وطهارة القلوب من محبتهم .
 فلا يجوز لأحد ، ولا يستحسن العاقل إذا عرف باطن الطهارة ، أن يدخل
 الحلاء ويخرج ولا يغسل ، ويقول إنه قد عرف . فإذا ترك ظاهرها يتوسخ
 ويقع عليه اسم النجاسة . بل يجب على من عرف الباطن أن يزيد فى طهره
 ونظافته بدّنه . . . كذلك أى رجل عرف باطن ثوبه ولبّسه . وهو التقية
 والسترة ، وإقامة الشريعة مع أهلها . واللطف بهم » .

هذه التقية التى كثر القول عليها ، يقول معها حمزة فى الرسالة ٢١ :
 « . . . واجمع شمل الموحدين . وكنّ لهم فى نفاسهم ، وأعراسهم ،

وجنازهم ، على السنة . . .

وفي الرسالة ٣٣ من أجل التجاوب ، في الفرائض الدينية ، مع السنة ، يوصى بقوله : « صونوا الحكمة عن غير أهلها . . . واستروا بالمألوف عند أهله . . . فأنتم ترونهم من حيث لا يرونكم . . . وهم عما في أيديكم غافلون . وعما اقتبستموه من نور الحكمة محجوبون . . . لقد جهلوا وعرفتم » . . . لذلك جاء في رسالة المذهب الأولى المسماة « السجلّ الذي وُجد معلّةً على المشاهد » أن الحاكم أنعم على الناس « بإحياء سنن الإسلام والإيمان ، التي هي الدين عند الله . . . وبني الجوامع وشيدها ، وعمّر المساجد وزخرفها ، وأقام الصلاة في أوقاتها ، والزكاة في حقّها وواجباتها ، وأقام الحجّ ، والجهاد ، وعمّر بيت الله الحرام ، وأقام دعائم الإسلام . وأيدكم بما خصّه الله من حكمته ، ليهديكم بها إلى رحمته ، ويحكمكم على طاعته واطاعة رسوله . . . وفتح لكم خارج قصره دار علمٍ حوت من جميع علوم الدين وآدابه . . . فواظبوا على ذلك قبل أن تحقّ الحاقّة ، وتقرع القارعة ، ويغلق باب الرحمة . . . وقد أعذر من أنذر » . . .

وأنتهيّت الرسالة بهذه العبارات : « وصلى الله على محمد سيّد المرسلين ، وخاتم النبيين ، وسلّم على آله الطاهرين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

بعد هذا الإيجاز ، لم يبق لي إلّا مواجهة مكفّرى هذا المذهب بما قاله الإمام الشيخ محمد عبده ، في كتابه « الإسلام والنصرانية » :

« إذا تعارض العقل والنقل ، أخذ بما دلّ عليه العقل ، وبقي في النقل طريقان : طريق التسليم بصحّة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الأمر إلى الله في علمه . والطريق الثانية تأويل النقل ، مع المحافظة على قوانين اللغة ، حتى يتفق معناه مع ما أثبتته العقل . . . وإذا صدر قول يحتمل الكفر من مائة وجه ، ويحتمل الإيمان من وجه واحد ، حمّل على الإيمان ، ولا يجوز حمّله على الكفر » .

في هذا القول المبين لإيماءة إلى رحابة الإسلام لا تفتقر إلى دليل ،

وتسامح فيه صميم أصيل . منهما انطلقت التأويلات الباطنية ، ونظريات غلاة الصوفية ، ونعددت المذاهب الإسلامية ، ومنها مذهب الموحدين الذى قال عن أتباعه فضيلة شيخ الإسلام الأكبر لإمام الجامع الأزهر ، محمود شلتوت فى تصريح نشرته الصحف بتاريخ ١ آب ١٩٥٩ :

« لقد أرسلنا من الأزهر بعض العلماء كى يتعرفوا أكثر على المذهب الدرزي . وجاءت التقارير الأولى تبشّر بالخير . فالدروز موحدون مسلمون مؤمنون » .

أما الزمن الذى نشأ فيه هذا المذهب ، كما ذكرنا من قبل ، فقد كان زمن نهضة فكرية جاححة . جال فيها العقل جولته ، وصال صولته ، وأقبل الناس على العلم يسلطون الأنوار ، على كل " خفي " من الأسرار ، يستكشفون بها ما وراء كل " عصي " من الأستار ، حتى إن « الرشيد » أهرأن تلحق مدسة بكل " مسجد ، وكانت مكتبة القاهرة تحتوى مئة ألف مجلد ، وفى الأندلس سبعون مكتبة عمومية ، فى إحداها ستماية ألف مجلد . ولم يخل بيت عربى فى إسبانيا من مكتبة خاصة ، ومن أغرب ما يروى أن سلطان بخارى دعا إليه طبيباً أندلسياً شهيراً فأجابه أنه يحتاج إلى أربعماية جمل لحمل كتبه التى لا يستغنى عنها . كل هذا قبل عهد الطباعة .

ولم يكن التنافس بين العباسيين فى المشرق ، والأمويين فى الأندلس ، والفاطميين فى مصر ، مقصوراً على بسط السلطان وتوسيع رقعة المُلْك . بل عداهما ، وكاد ينصرف عنهما ، إلى نشر العلم . وهما إن " بجامعة الأزهر لا تزال مزدهرة حتى يومنا هذا .

وامتدت يد العلم إلى حرم الدين وسننه . مما أثار غلاة النقل على غلاة العقل . حتى أصبح الرمى بالزندقة من بدايات الغاضبين للدين . وعُدَّ كل مُحَدِّث بدعة فى رأى الناقلين . لم ينج من ذلك عدد من الأئمة العظام ، كالغزالي الذى أحرقت كتبه فى غرناطة وأشهرها كتاب « إحياء علوم الدين » . وغيره ، كابن تيمية ، والأشعرى ، والباقلاني ، والإسفرابيني ، والأصفهاني . وابن العربي ، والطبري ، وغيرهم كثيرون .

المرأة

العرض في اللغة هو النفس ، وجانب الكرامة والشرف ، وفي اصطلاح بنى معروف هو المرأة. صيانتُها عندهم أعزّ من صيانة النفس ، يستميتون في الدفاع عنها ، ويفاخرون بها الشعوب. كلّ عشيرة منهم في زمن الفروسية ، وعهدهم بها قريب ، كانت تستهلّ النخوات ، عند خوض المعارك ، باسم « أنخت » لها اشتهرت بالشجاعة والعفة والدكاء ، تختارها مباهيةً معتزةً في استشارات « النشامى » للنزال والصيال . فيصيح خائض الغمرات منهم ، مسميًّا : أنا أخو « فلانة » ، ثم يبيع النفس ولا يهمله أن يعود .

في حرب الاتجاه ضد إبراهيم باشا المصرى ، بعد انهزام الدروز ولحاق الجيش بهم إلى داخل الوعور حيث استأمنت العيال ، تصايحت النساء « لمن تركوننا يا أنشامى الدروز » . فارتدوا على قلة عددهم ، وزهيد زادهم وعدتهم ، بالسيف يهزون الجيش شرّ هزيمة وضعت « الاتجاه » في تاريخ الفروسية إلى جانب « ماراثون » و « ثرووبلى » .

أكبر إهانة في نظرهم التعريض بالعرض ، تستوى عندهم في ذلك نساؤهم ونساءُ غيرهم ، حتى الأعداء . ويوجبون لهنّ الصون والاحترام . حتى إن قاطع الطريق منهم ، كالسلاّبة الذى ثار على الفرنسيين في عهد انتدابهم على لبنان ، وأطلق الناس عليه لقب « روبن هود » ، كان يرفع يده عن المرأة الفرنسية باحترام ويعفّ عما معها وهو يعلم أن رفقاء السفر ، حين رأوه ، خبّأوا محافظ نقدهم في مطاوى ثوبها .

وإني لأذكر كلمة سلطان الأطرش يوم كان قائداً للدروز في ثورتهم على الانتداب ، حين رجاني المفوض السامى الفرنسى وكلفنى السعى لإخراج النساء الفرنسيات من قلعة « السويداء » المحاصرة الجائعة . وكنت آنذاك مديراً للمعارف هناك . قال سلطان : « نحن لا نحارب الفرنسيين ومعهم نساؤهم ،

أخرجهم لنزيرهم كيف يكون شرف القتال . فهم لم يعفوا عن قتل نساينا ... ملصحا إلى قصفهم بالطائرات المنازل على النساء والأطفال حين كان الرجال خارجها في ساحات القتال . ثم زحف سلطان على سوريا وأصبح القائد العام للثورة السورية .

وكانت الحرب العالمية الأولى قد سجلت لقومه ، بإعجاب ولا كبار ، لبواءهم عشرات الألوف من اللبنانيين الذين شردتهم المجاعة عن بلادهم إلى جبل الدروز (« جبل العرب » اليوم) الزاخر بالحنطة التي لم تمتد إليها يد الجيش التركي تهيبا واسترضاء . ثم عادت تلك الألوف بعد انتهاء الحرب ، إلى ديارها المنكوبة ، سالمة الأعراض ، لم تتخلف منها امرأة واحدة . بينما تزوج من الدرزيات اللاجئات هناك عدد كبير .

يقول المؤرخون ، ومنهم دنيال بليس رئيس الجاهة الأميركية الأول في بيروت ، عن الحرب الأهلية سنة ١٨٦٠ إن المرأة من خصوم الدروز كانت تمر في معسكراتهم آمنة . لا يرفع إليها طرف ولا يقع في أذنها كلام . وهذا لا تستطيع أن تدعيه جيوش أمم غربية تبجح بمدنيتها ، ثم تتنكر في الحروب لحضارتها . إنهم الشهامة العربية في ذروتها عند بني معروف .

فلننظر في تعاليم المذهب بما يتعاق بالمرأة :

تحذر الرسالة ١٥ :

« الحذر الحذر ، عشر المؤمنات ، أن تنظر لإحداكن إلى رجل مؤمن أو مخالف إلا باعين التي تنظر بها إلى ابنتها أو أبيها . . . ولتعلم أن المولى جل ذكره يراها حيث كانت . وفي آية حالة كانت . . . إن إحداكن تستحي من جاريتها أو تفرع من جارها إذا كانت في حالة منكرة . فكيف من لا تخفى عنه خافية . . . فالحذر الحذر ، معاشر المؤمنين والمؤمنات ، من ارتكاب الأهواء والفواحش والشهوات البهيمية واتباع المنكرات . . . فن نهى نفسه عن الشهوات كان أفضل من الملائكة المقربين » . . .

وتوصى الرسالة ٨ :

« يجب على النساء المؤمنات أن لا يشغلن قلوبهنّ بغير التوحيد والطاعة لحدود الدين . . . لا يقرأ الداعي هذه الرسالة على امرأة وحدها . ولا في بيت ليس فيه غيرها . ولو كانا مؤمنتين ثقات . ليرفع الشكّ فيه . ويحسم امتداد الألسن إليه . . . وليكن نظر الداعي والمأذون : عند القراءة : إلى الكتاب الذى يقرؤه » .

هكذا يتشدّد المذهب في الحفاظ على الأعراض . وفي الحذر والتحوّط لكل ماله علاقة بالمرأة . استبعاداً للشبهات . وتحاشياً للظنون . ولا يعرف التاريخ جماعة أحرص من الدروز على الآداب ، والتهديب الجنسي ، وطهارة الأعراض ، وصراحة الأنساب عملاً بقوله تعالى : « واتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ » . إن الله كان عليكم رقيباً » [الآية ١ سورة النساء] . ويقول الرسالة ١٥ : « من لا يغار على عبالة فليس بمؤمن . بل هو خرمي طالب الراحة والإباحة . راكب هواه وضلالته » . والخرميون فرقة من القرامطة أتباع بابك الذى عاش قبيل ظهور القرامطة . وكان من اللاأدريين .

جميع الرسائل حافلة بالنهاي « عن الفواحش والشهوات الدنيّة . . . وعن التهمة في الأبدان . والفساد في الأديان » . . . تُردّد أن الذين يصونون أنفسهم عن نزوات الغرائز ونحائز الأبدان ، يفوقون الملائكة طهراً وكمالاً . وتزجر عن الشتم ، والقذف ، وهُجْر الكلام ، وشرب الخمر . فى الرسالة ٢٨ المنفذة إلى قاضى القضاة أحمد بن العوام بأمر حمزة « ببجلد الزانى ، والسارق ، والقاذف ، وشارب الخمر » .

أما عفة المرأة فشرط لسلامة الزواج . وبُتولية الفتاة شرط لعقده . ويُفسخ إذا هى لم توافق عليه . والمرأة بعد ذلك سيدة المنزل . آمنة فيه من طلاق ينفرد به الزوج اعتباطاً ؛ ومن تعدّد الزوجات الذى نهى عنه ، قبل حمزة ، المعزّ لدين الله جدّ الحاكم ، بروح التعاليم القرآنية ؛ وحرّمه المذهب ،

لاستحالة العدل معه ، وفقاً للآية الكريمة : « . . . ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » [السورة ٤ النساء الآية ١٢٨] وهى بجواب الآية : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة . . . » [الآية ٣ من السورة نفسها] والآية : « ما جعل الله للرجل من قلبين في جوفه » [الآية ٤ السورة ٣٣ الأحزاب] . لا يحرص المذهب على تحريم تعدد الزوجات ، وعدم إعادة المطلقة إلى زوجها ، وحسب . بل يحرص الزواج بين الموحدين . وينهى عن ابتغاء النساء بالأموال وعن الاستمتاع بهن ولو أوتين أجورهن فريضة . أى أنه نهى عن أن يأتى الرجل امرأة فيوافقها على شهور معلومة بدراهم معلومة . ويجعل ذلك فريضة عن رضى منها ، فإذا تم ذلك وقبضت تلك الفريضة ، فإن أراد أن يصرفها صرفها . . . وإن أراد جدد لها فريضة أخرى وأقامت عنده أو تأتته لتأتم تلك الفريضة !!! ينهى عن ذلك كله . ويأمر أن « كونوا محصنين غير مسافحين . . . وإلا فقد بطلت من قلوب الآباء صحة الأولاد ، والتبست أنساب العباد » .

يبالغ في الحصانة مبالغة أصبحت مضرب الأمثال . فليس في الأنام جماعة كاللدورز ظلت ألف سنة لم يُصَبَّها الخِلاط . ولنسائها ميثاق يفرض العفة والصيانة و « التبرؤ من كل دنس ونجس وعيب ورجس . وتجنب الشهوات والشبهات » .

ويوجب على المرأة تأدية الرسالة الروحية . والمرأة حاضنة العقائد في التاريخ . فقد كان لها دور كبير في التوجيه الروحي . نستدل على المنزلة التي تبوأتها في صدر الدعوة ، بالرسالة ٥٢ إذ يُنسبُ بهاء الدين أهل الوادى بقوله : « وقد سيرتُ إلى جهتك ابنتى سارة ، الكاملة العفاف والطهارة . ومعها شقيقى الأستاذ أبو الحسن تقي » . ولعل سارة هذه ابنته « الروحية » أو ابنة أخيه ! أما حقوق المرأة في الزواج والطلاق والإرث ، فإنها تختلف عن السنة ، بقانون أحوال شخصية ، حديث : سنّ لدروز لبنان في ٢٤ شباط سنة ١٩٤٨ . وما لم يشمل هذا القانون يعاد فيه إلى المذهب الحنفى . والقانون توسّع في

ما تنصّ عليه كتب المذهب . فإنه يحدد الأهلية للزواج بسن ١٨ للفقى و١٧ للفتاة وإنزالهما سنتين بإذن الولي والمرجع المذهبي ، بعد التثبت طبيياً . ويطلق للفتاة حرية الزواج بعد بلوغها الحادية والعشرين ، بشهادة صحيحة لها وللخاطب . لهذا القانون أحكام في الطلاق . فيها مراعاة « لشرط الإمام » الذي يُعَدُّ المرجع الأساسي للتشريع .

وفيها تكملة للشرط . منها أن التراضي في الطلاق جائز . ومنها أن الزوجة تستطيع أن تطلق زوجها إذا كان مصاباً بعلّة تحول دون المساكنة ، أو بالجنون . أو إذا كان محكوماً عليه بالسجن عشر سنوات ولو قضى منها خمساً في السجن . أو إذا اختفى ثلاث سنوات انقطعت معها النفقة . أو خمس سنوات تباعاً وأوفق . أو كان حاضراً ولم ينفق على الزوجة سنتين متتابتين . وما إلى ذلك من تعويض يقدره القاضي عن الضرر المادي والمعنوي . فيما يلي نورد نصّ الرسالة المسماة « شرط الإمام » الذي يعطى ، على إيجازه ، صورة جلية لتساوى المرأة مع الرجل :

« . . . والذي توجبه شروط الديانة : أنه إذا تسلم أحد الموحدين بعض أخواته الموحّدات ، فيساويها بنفسه . ويُنصفها من جميع ما في يده . فإن أوجب الحال فُرقةً بينهما ، فأيهما كان المعتدى على الآخر ، فإن كانت المرأة خارجةً عن طاعة زوجها ، وعُلم أن فيه القوة والإنصاف لها ، وكان لا بُد للمرأة من فُرقة الرجل ، فلنه من جميع ما تملكه النصف ، إذا عرف الثقات تعدّيتها عليه ، وإنصافه لها .

« وإن عرف الثقات أنه مُحيفٌ عليها ، وخرجت من تحت ضرورة ، خرجت بجميع ما تملكه ، وليس له معها شيءٌ في مالها .
« وإن كانت هي المخالفة له . وليست تدخل من تحت طريقته ، فله النصف من جميع ما تملكه ، ولو أنه ثوبها الذي في عنقها .

« وإن اختار الرجل فرقها باختياره ، بلا ذنب لها إليه ، فلها النصف من كل ما يملكه ، من ثوب ، ورحل ، وفضّة وذهب ، ودواب ، وما حاطته

يَبْدُوهُ لموضع الإنصاف والعدل» . . .

منذ أكثر من نصف قرن قبل هذا «الشرط» جمع المعزّ لدين الله ، وهو بالمنصورية ، شيوخَ كتابة إلى خلوة في قصره . وبعد أن وصف لهم وأراهم كيف يعيش بالتنسك والقنوت منصرفاً إلى شؤون الرعية ، قال :

« . . . وإني لا أشتغل بشيء من ملاذ الدنيا . . . فافعلوا يا شيوخ في خلواتكم مثل ما أفعله . . . وأقبلوا بعدها على نسائكم . والزمو الواحدة التي تكون لكم . ولا تشبهوا إلى التكثير منهنّ ، والرغبة فيهنّ ، فيتنصص عيشكم ، وتعود المضرّة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ، وتضعف تحايّزكم . فحسب الرجل الواحد الواحدة » . . .

يبدو من هذا ، في شأن تعدّد الزوجات ، وما يتبع الزواج من حقوق المساكنة والطلاق ، أن النهضة الإصلاحية سبقت دعوة التوحيد . وقامت ، في تفرّعها من السنّة ، وضبط انطلاقتها ، على ما اعتقده المذهب تفسيراً صحيحاً لأحكام القرآن ومغزى آياته . من دلائل صحته ، وانطباقه على حاضر المدنية في طورها . أن المسلمين قاطبةً يشمئزون اليوم من تعدّد الزوجات . ومن بواعث اعتزاز الدروز أنّ مذهبهم كان رائد هذا التطور الصحيح ، منذ ألف سنة . واليوم تُسنّ قوانين في دول إسلامية تمنع التعدّد وتضبط شؤون الطلاق . ويقول « ضيا » شاعر الأتراك عن ضرورة التساوى بين الرجل والمرأة : « لا شك أنّ الخطأ في تفسير القرآن كان من العلماء . . . فالتساوى ضروري » . وهؤلاء العلماء اليوم ، كما نرى في مصر ، يقولون بهذا التطور . أما عن صحة الأنساب عند الدروز وصيانة الأعراس فأكتفي بشهادة المؤرخ الدكتور محمد كامل حسين في كتابه « طائفة الدروز » إذ يقول :

« المرأة الدرزية أعفّ نساء العالم وأشدّهن طهارة ومحافظة على شرفها » .

وأخيراً لا بدّ من القول بأن الشعوب اليوم لا تستطيع الانفراد بآية عزلة . حتى في الشؤون الدينية .

الأخلاق

« الجودة » أى الصلاح ، فى فلسفة المذهب ، ليست وسيلة لغاية وحسب .
إنها حالة عقلية مستمرة فى تطوير الروح الإنسانية نحو الكمال . وخلافاً
لفلسفة اللذة « الهدونية » ، تقوم هذه الجودة بترويض النفس على الحرمان
والشظف و « قهر » الذات وتقويمها ، من أجل تجويدها .

إنها لا تعتبر الألم شراً فى ذاته . بل إن الابتلاء به امتحان للروح . فالخير
والشر يقاسان بخواتيمهما . لأنه من العسير فصل طبيعة الأمور عن نتائجها .
لذلك يفرض المذهب على أتباعه الامتناع عن التمتع بما أباحه القرآن
الكريم للمؤمنين ، وما أجازته من ملذات الدنيا الحسية . ويعتبرها مناقضة
للفضيلة أو للجودة التى ينمىها التعفف . حتى إن المغرقين فى « الجردة » ،
كثيراً ما يُسمعون مستغفرين ربهم من طعام استطابوه ، أوراثة استساغوها .
مقياس فضيلة الحرمان عندهم ، ما تشيعه من الخير فى إيجابيتها ،
وما تنشره من النفع فى امتدادها ، وفاقاً لفريضتهم الثانية من الفرائض السبع ،
« حفظ الإخوان » . وهى ، عدا فائدتها للآخرين ، كما توحى فلسفة أفلاطون
الأخلاقية ، مرتبطة بالمعرفة . « والفضيلة هى المعرفة » كما يقول سقراط . وهى
عند أهل الباطن منبثقة من العقل الكلى .

يقولون إن اللذة الحقيقية تنهَجِسُ من إشباع التشوق إلى المعرفة :
« لأنه بالمعرفة وحدها تدرك الحقيقة » كما يؤكد أفلاطون . و « الحكمة »
تقول : إن المعرفة الحقيقية هى أسمى الغايات . بها ترتفع الحياة إلى أعلى مراتبها .
إن الرواقين يقتصرون ، فى تقدير الفضيلة ، على إيجابيتها وتطبيقها
عملياً . أما « الحكمة » فتعتبرها ناقصة إذا لم تنبثق من المعرفة التى توجهها فى
امتدادها منها . بحيث تغفل إذا انفصلت عنها . فتفقد الضابط العقلى .
وتحيد الرغبة بالروح عن مسالك الصواب .

المؤمنون بهذه الحكمة يتقبلون الفرح والحزن ، واللذة والألم ، بالرضى والتسليم . ويعدونها تجريباً وامتحاناً لقوة الإرادة والاحتمال والثبات على الإيمان في مراقب تطهير الروح . ويخالفون الفلاسفة « الأبيقورية » ، في تجنبهم المسرات . نابذين القول بأنها الهدف المنشود ، إذا لم تُسْفِر عن ألم . فإنهم يتقبلون الألم آمليين أن يُسْفِر تغلبهم عليه عن نشوة روحية . وتبلغ المسرة أوجها عند زوال الألم . وهم فوق ذلك يقصدون سعادة الحصول على الثواب الروحي . تقول في ذلك الرسالة ١٨ : « من صبر على قضاء الله عبره قضاء الله وهو مأجور . ومن جزع من قضاء الله عبره قضاء الله وهو مأثوم » يشهد لهم كل من يعايشهم ، بالعزوف عن المسرات والملاهي ، وبالإعراض عن شهوات الجسد . فإنهم يعتبرونه عنصراً غريباً ، أو ثوباً يجرى فيه امتحان الروح واختباراتهما ، عبر الأجيال حتى يوم الحساب . ولكنهم ينكرون العزوبية . ردّ دين : « لا رهبانية في الإسلام » . ومع ذلك تقول الرسالة ١٥ : « لو أن رجلاً مؤمناً عاش مائة سنة ولم يتزوج ولم يعرف حراماً لم ينقص ذلك من منزلته في الدين شيئاً . وكذلك المرأة . . . » أما وصاياهم الأخلاقية فأهمها الحث على الصدق والعدل . والصدق ، كما رأينا آنفاً ، أول الفروض .

في ذلك تقول الرسالة ٩ :

« ألزِمْتُمْ بصدق اللسان ، وحفظ الإخوان . . . فن لم يكن صادقاً بلسانه ، فهو بالقلب أكذب يقيناً ، وأكثر نفاقاً . واعلموا أن الصدق هو الإيمان والتوحيد بكماله . . . إن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » . وتقول الرسالة ٢١ : « احذر من الزيادة في الألفاظ والنقصان منها . . . وقل الحق . ولا تخش إلا ذنبك » .

وتنهي الرسالة ٧٧ عن الزور والافتراء ، وتقول : « من قال في أخيه ما ليس فيه ، أو حرّف قوله ، أو حلل شيئاً مما حرّمه الإمام . . . فقد جحد الإيمان » .

وتضيف إلى ذلك رسالة «أزهار الرياض» في «كتاب اليونان» :
 « يجمع الكذب كلَّ حرام ، ويجمع الصدق كلَّ حلال . فالحذر
 الحذر من الكذب وفروعه . . . إن الحصول الرديّة هي : الكذب ، الزنا ،
 السرقة ، الشرّ ، البغضاء ، الحسد ، النميّة . . . والحصول الصالحة هي :
 الصدق ، العفة ، الأمانة ، القناعة ، المحبة ، الوداعة ، الحكمة . »

ويوصي حمزة في الرسالة ١٠ :

« على كلّ مستجيب أن يكون قوله بالعمل ممزوجاً ، وقلبه بالرضى
 والتسليم مدّرجاً ، وبيته بالعدل والتوحيد منسوجاً . ومن دخل إلى التوحيد ميلاً
 إلى الراحة والإباحة وكان مذهبه قولاً باللسان بلا تصديق بالحنان ، كذّبه
 شواهد الامتحان . . . اصبروا وصابروا في البأساء والضراء . . . والزموا
 ما أمرتكم به في كتب من صدق اللسان وحفظ الإخوان والرضى والتسليم . . . »
 بعد هذا اقرأ معي ما جاء في الرسالة ٤١ :

« اعلّموا معاشر الإخوان أن . . . ولانا فرض عليكم صدق اللسان وحفظ
 الإخوان ، من سبع خصال توحيدية ، أولها وأعظمها الصدق ، وهو يفرّق بين
 الباطل والحقّ ، فلا تكونوا من الكاذبين ، ولا تكونوا ممن قالوا سمعنا وأطعنا ،
 وشربوا في قلوبهم العجّل بكفرهم ، والعجل فهو ضدّ «العقل» . . . وقد
 علمتم بأنّ الإسلام والإيمان وسائر الشرائع والأديان ، لا تكمل إلاّ بالشروط
 والأعمال الصالحة . . . فمن كان يزعم أنه مؤمن موحد ، ولا يكون صادقاً
 في أقواله ، محسناً في أفعاله ، كان مدّعى التوحيد ، مستعمل الشك والتلحيد . .
 إن صدّق اللسان هو التوحيد بكماله . . . فمن استعمل الصدق رقى الدرجات
 وفاز بالخيرات . . . فالحذر الحذر ، معاشر الموحدين ، أن تخالف قلوبكم
 ما تنطق به ألسنتكم . فإن ذلك يسخط قائم زمانكم » . ويقول شرحها :
 « إن الصدق خلّة من خلل الكرامة والأمانة ، وإنه الإيمان والتوحيد بكماله ،
 وهو عوض الصلاة ، لأنه صلة المرء بالمعبود . »

أما ما جاء في الرسالة من التحفظ في ما يؤذى المؤمنين ويسلّط عليهم

أعداءهم، وهم ضعاف في وجه الكثرة المعادية، فهو من باب التقيّة لدفع الأذى والوقية مما لا تنفع معها صراحة تُعدُّ فسّاحة في القول ، وتحدّياً بالمجابهة . والله لا يكلف المؤمنين كشف مقائلهم . وقد قرأت للمقرئ تجنّياً بالشك في التزامهم الصدق مع غير الإخوان . مع أنه توخى لإنصافهم في سائر ما كتب .

على أن الرسالة ٣٥ تأمر بقول الحق دون خشية فإن : « من خشي من بشر مثله ، سلّط عليه » . وهو ما يردّه أتباع هذا المذهب .
وتخاطب الرسالة ٦٣ الأبناء بما يلي :

« أيها الولد ، عصمتك الباري من نزعات الأبالسة والشياطين ، وجنبك مهاوى الغاوين المارقين ، وجعلك لأواهر ولى الحق متبعاً مُصدّقاً . . . ولقمص العُجب والاستكبار خالماً ممزّقاً . . . وحماك من التلبّس بأهل التمويه والسخرية ، الذين عكست نفوسهم الآراء الخبيثة . . . وأوردتها حياض العقوق . . . واستلذاذ المآلف البهيمية . . . فالنفوس النفيسة تتعالى عن الرذائل ، آنفة من الانسفال ، منزّهة عن اللدد . . . فاقتد أيها الولد الصالح بما أثر أهل الدين والفضل ، وزن فعلك بقسطاس الحق والعدل » . . .

ومثل ذلك توصي الرسالة ٦٥ بقولها :

« أقيم بينهم منار الحق . وعرفهم عوار من شرد إلى الباطل والكذب . . . والظنوا بالصغار . وألحقوهم . بالسياسة والتواضع ، بمنازل الكبار . وانزعوا رداء التكبر . وعلموهم سجايا أهل التوحيد ومكارم الأخلاق . . . وصوروا كرائمكم . . . واستدركوا حفظ أعراضكم بالرفق . . . وأقلّعوا عن مصارع شهوات الكذب » .

إن كتب الحكمة تفيض بمثل هذه الوصايا . وما أوردناه منها كان مثلاً .
وجزاً لها لنُهيها بما ورد في الرسالة ٧٨ :

« يا إخوة ، إن من يعتقد أن الله حق ، يتحقق أنه لا يستخلف على العالم

إلاّ عادلاً ونصفاً . . . فأنصفوا نفوسكم بالتفكّر بالحقّ ومعرفه أهله . . .
وتقربوا إلى الله بصالح الأعمال .

وأخيراً يتشدّد المذهب في الحقّ على العدل ، بما يشبه جواب
« كونفوشيوس » حين سئل : « هل من الحقّ مقابلة الشرّ بالخير ؟ »
فأجاب : « كيف إذن تقابلون الخير ؟ قابلوا الخير بالخير ، والشرّ بالعدل » .

يقول الإمام عليّ كرم الله وجهه : « الدين المعاملة » . والدروز اشتهروا
بأنهم في معاملة ملتهم ألصق الناس بعقيدتهم . يترفعون عن الدنيا . ويجتنبون
المال الحرام ، ويبتعدون عن أبواب الموسرين والحكّام ، زهداً في متاع الدنيا ،
والمكاسب المتّهمة بالابتزاز .

المعاملة والأخلاق عندهم مقياس الدين . على أن الزمان يدور بأهله ،
ويصهر أشتاتهم في بوتقته . إنه عدوّ العزلة والتفاوت والانفراد . وقد دار
بالدروز دورته ، وسار فيهم سيرته ، فهم اليوم غيرهم أمس ، وغداً
غيرهم اليوم . ولكنهم لم يفقدوا ما تميّزوا به من المناقب والسجايا . وما زالوا
مبرزين في الأمانة والوفاء ، والكرم ، ورقة الشماثل والشم ، بها « خشنوا
ورقدوا » كما وصفهم « شوقي » . وهم في صياصي جبالهم « ذادة وقراءة ضيف » ،
تحلّوا بروائع فروسيّتهم الركبان ، وتروى كالأساطير أنباء شجاعتهم في
كل مكان .

يشهد لهم بهذه المزايا ، على توالى الأجيال ، كلُّ من تعامل معهم ،
وعرفهم ، وجاورهم بقلب سليم . حتى أصبحوا مضرب الأمثال في
ديار العروبة . ولكنهم لم يسدوا من افتراء مرضى القلوب من المتعصّين ،
وتزييف الجاهلين بالحدس والتخمين ، وتأمّس المتلمسين ، ومحاولات المستطلعين ،
في وجه كتمان زالت أسبابه ، وتغيّرت أسواره وتخرّقت من البلى أبوابه .
لذلك كان هذا الكتاب .

